ثلاثية أسلافنا 3

سلسلة الجوائز
153

إيتالو كالفينو



فارس بلا وجود

ترجمة وتقديم: د. أماني فوزي حبشي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

كالفينو، ايتالو، ١٩٢٣ ـ ١٩٨٥.

فارس بلا وجود/ تأليف: إيتالو كالفينو؛ ترجمة وتقديم: أمانى فوزى حبشى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٦.

١٦٨ص؛ ٢٤ سم.

تدمك ٤ ٠٩٩٥ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الإيطالية.

أ ـ حبشى، أمانى فوزى. (مترجم ومقدم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٧٣٩/ ٢٠١٦

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 0995 - 4

ديوى ٨٥٣

فارسٌ بلا وجودٍ

تأليف : إيتالو كالفينو
ترجمة وتقديم : د . أماني فوزي حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٦

• الكتاب: فارسٌ بلا وجود.

II Cavaliere inesistente

• تأليف: إيتالو كالفينو.

I talo Calrino

• ترجمة: د. أماني فوزي حبشي.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من ورثة إيتالو كالفينو للهيئة المصرية العامة للكتاب..

• الطبعة الأولى 2016.

• طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مقدمة

رواية فارس بلا وجود هي الجزء الثالث من ثلاثية إيتالو كالفينو "أسلافنا"، وقد سبق وأصدرت سلسلة الجوائز الجزءين الأول والثاني منها: "الفسكونت المشطور"، و"البارون ساكن الأشجار"، وشمل الجزء الأول في مقدمته مقدمة المؤلف ومراجع الجزء الأول والمترجم للثلاثية.

وفي رواية "فارس بلا وجود" نجد أن كالفينو يعرض لنا ذلك البحث المضني عن الذات، البحث عن الهوية الضائعة، فالأحداث المتشابكة تجمع في طياتها حدثًا وفكرة واحدة، فالأبطال جميعهم يبحثون عن وجود ما، فذلك الفارس الذي لا يجد نفسه إلا في اللقب الذي حمله حيث لا وجود مادي له، والذي بمجرد إثارة الشك في عدم مصداقية إنجازه، يختفي من الوجود ويتلاشى، وكأن وعي الإنسان بعمل ما، أو إنجاز ما في الحياة هو سر البقاء، هو سر وجوده، فهناك فارس بلا وجود، وشخص موجود (جوردولو) إلا أن وجوده خال من الوعي، مخروم الإدراك فهو لا يعرف شيئًا عن وجوده فيتماثل بالتالي مع كل المخلوقات:

ـ آه يا للروعة! أنا هنا أمام أحد رعاياي موجودًا ولكنه لا يعرف ذلك، ولدى ذلك الفارس هناك الذي يعرف أنه موجود ولكنه بلا وجود. أؤكد لكم أنهما يصنعان معًا زوجًا جيدًا!

في هذه الرواية يقدم كالفينو "شخصية المترجم" في الحروب، ذلك الذي نظرًا لأنه يعرف كيف تقال الأشياء بلغتين مختلفتين، يتعرض للمخاطر، وللقتل أحيانًا كثيرة، وهي صورة تمثل اليوم - إلى حد كبير - صورة المترجمين في مناطق الصراع والحروب الحالية، صورة أصبح لها أهميتها في الوقت الحالي حتى أفرد لها دارسو [1] الترجمة والأدباء[2] صفحات، بل نالت اهتمامًا أيضًا من أهل هوليوود[3]، يقول كالفينو عن المترجم في ميدان المعركة:

لذلك كان غاية في الأهمية أن يفهم كل طرف ما يقوله الطرف الآخر، وهو الأمر الذي لم يكن سهلاً بين الأتراك والمسيحيين. فبوجود لغات مختلفة بين محاربي الأتراك والمسيحيين، وإذا لحق بك سباب لا يمكنك فهم معناه، ماذا يمكنك أن تفعل؟ كان عليك إذن الاحتفاظ به، وربما تبقى ملطخًا به طوال حياتك. ولذلك، ففي تلك المرحلة من القتال كان يتدخل المترجمون. كانت فرقة سريعة ترتدي دروعًا خفيفة وتمتطي خيولاً خاصة صغيرة الحجم، وكانت تدور في المعركة حول المحاربين، كانوا يلتقطون على الفور السباب ويترجمونه إلى لغة المستمع.

وبالنسبة إلى أولئك المترجمين كان هناك اتفاق ضمني بين الطرفين على عدم المساس بهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا يسيرون بسرعة شديدة، وفي تلك الفوضى لم يكن من السهل قتل محارب ثقيل يمتطي جوادًا منتفخًا يسير بصعوبة لما وضعوه فوقه من دروع كثيرة، فلنتخيل إذن وضع

---

(1) ظهر أخيرًا باللغة الإنجليزية العديد من الكتب التي تتناول في خضم الصراع ومنها كتاب Baker Mona, Tanslation and Confict, Rouglrdge, 2006

(2) منها رواية المترجمة، للروائية ليلى أبو العلا Aboulela, Leila (1999), The Translator, Edinburgh: Polygon

(3) The Inerpreter عرض عام 2004 وقامت ببطولته نيكول وشون بين، ويظهر في الفيلم كيفية إقحام مترجمي الأمم المتحدة أحيانًا في الصراع السياسي.

هؤلاء الذين يقفزون بحركاتهم السريعة. ولكن كما هو معروف فالحرب هي الحرب، وكل فترة تترك ضحاياها. أما هم، ولأنهم يعرفون كيف تُقال "يا ابن العاهرة" ببضع لغات، كان لا بد أن يكون لهم نصيبهم في المخاطرة.

يقول كالفينو عن روايته في مقدمته للثلاثية:

انطلاقًا من الشخص البدائي الذي يمكن وصفه بأنه ما زال غير موجود لأنه لم يختلف عن المادة العضوية وذلك لأنه ما زال متحدًا مع الكون، وصلنا رويدًا رويدًا إلى الشخص الاصطناعي الذي نظرًا لكونه متحدًا مع النتائج والمواقف فهو أيضًا غير موجود لأنه لا يتناقض مع أي شيء ولا علاقة له بأي شيء مما يحيط به من طبيعة أو تاريخ؛ علاقة تبدأ بالصراع ومن خلاله تصل للتناغم فهو "يؤدي دوره" بطريقة مجردة.

هذه العقدة من التأملات بدأت تتجسد رويدًا رويدًا أمامي بصورة كانت تشغل ذهني منذ فترة، بدلة محارب تسير ولا شيء بداخلها. حاولت عام 1959 أن أكتب قصة حول ذلك فجاءت رواية "فارس بلا وجود".

استمد المحارب غير الموجود اجيلولفو ملامحه النفسية من نمط إنساني منتشر في كل البيئات الموجودة في مجتمعنا؛ ظهر لي عملي مع هذه الشخصية على الفور غاية في السهولة. فمن تركيبة اجيلولفو (ذلك العدم المسلح بالإرادة والوعي) استخلصت، ولكن بخطوات مضادة للمنطق (أي أنني انطلقت من الفكرة لأصل إلى الصورة، وليس بالعكس كما أفعل عادة)، تركيبة الوجود المحروم من الوعي أو الأفضل أن نقول المحروم من التماثل العام مع العالم الموضوعي، ورسمت شخصية حامل الترس جوردولو. لم تنجح هذه الشخصية في أن يكون لها الاستقلالية النفسية للشخصية الأولى، وهذا أمر مفهوم، نظرًا لأن الأنماط الأصلية لاجيلولفو يمكن أن نقابلها في كل مكان بينما النماذج الأصلية لشخصية جوردولو لا يمكن مقابلتها إلا في كتب علماء السلالات البشرية.

هاتان الشخصيتان، إحداهما محرومة من خصوصيتها الجسدية والأخرى من خصوصية الوعي، لا يمكنهما تطوير أي قصة؛ فهما بكل بساطة ليسا سوى إعلان للموضوع والذي يجب أن يتم من خلال شخصيات أخرى يتصارع فيها الوجود الذاتي مع عدم الوجود بداخل الشخص نفسه. والشاب هو الذي لا يعلم بعد إذا كان موجودًا أو غير موجود؛ إذن البطل الحقيقي لهذه القصة يجب أن يكون شابًا. يبحث رامبالدو، وهو فارس على نمط فرسان ستاندال، عن أدلة وجوده، مثلما يفعل الشباب. إن تأكيد هذا الوجود يكمن في الفعل؛ وسيكون رامبالدو هو رمز العمل والخبرة والتاريخ. ولكنني احتجت لشاب آخر، توريسموندو وجعلت منه رمزًا للمطلق، لذلك فإن تحقيق وجوده يجب أن ينبع من شيء آخر بعيد عن ذاته، مما كان قبله، من الكل الذي انفصل عنه.

وبما أن المرأة هي الكائن الوحيد المؤكد بالنسبة لأي شاب، فقد وضعت امرأتين؛ الأولى برادامنتي، والتي ترى الحب مواجهة وحربًا، وهي المرأة التي يحبها رامبالدو؛ والثانية سوفرونيا التي أشرت إليها إشارة عابرة، والحب عندها هو السلام. إن برادامنتي، التي ترى الحب حربًا، تبحث عن شخص مختلف عنها، إذن فهي تبحث عن اللا وجود، لذلك فهي تقع في حب اجيلولفو. ولكن بقي لي أن أرمز للوجود كتجربة صوفية للذوبان في الكل - مثل فاجنر، وبوذية .الساموراي - وبالتالي ظهرت شخصيات فرسان الجرال رمزًا لهذا الوجود الصوفي، و أن أرمز من ناحية أخرى للوجود - كتجربة تاريخية - لوعي شعب بقي حتى ذلك الوقت على هامش التاريخ (وهو المفهوم الذي عبّر عنه كارلو ليفي أكثر من مرة) ووضعت في مقابل فرسان الجرال شعب كورفالديا، ذلك الشعب البائس والمقهور قهرًا جعله لا يعرف - مجرد المعرفة - بأنه موجود في العالم، ولكنه سيتعلم هذا عن طريق النضال.

وفي رواية «فارس بلا وجود» ينقلنا المؤلف إلى نوع آخر من العلاقات بين الراوي والرواية، فيها يتوقف الراوي عن رواية الأحداث التي ينقلها ليتحدث عن تقنية الكتابة، ووضعه هو، ويعرفنا أكثر بنفسه وبهويته. ومن خلال تلك العلاقة يقترب الراوي من المؤلف في محاولة لنقل معاناته أثناء التأليف والإبداع. يقول كالفينو: وعندئذ فكرت في أن أعزل جهدي في الكتابة صانعًا منه شخصية: فابتدعت شخصية الراهبة الكاتبة، وكأنها هي التي تقص الرواية، وقد ساعد هذا على منحي دفعات أكثر استرخاء وتلقائية وساعد في استكمال كل شيء. حيث تتضح لنا منذ بداية معرفتنا بالراهبة الراوية في بداية الفصل الرابع تلك الإشكالية والتي تحاول هي بكل الطرق والصور نقلها لنا وخاصة في بداية الفصل السابع عندما تقول: أبدأ فى الكتابة بحماس ولكن منذ ساعة والريشة لا تقطر سوى ذرات حبر، ولم تعد تجرى فيها نقطة حياة، فالحياة كلها بالخارج.

وما تحكيه هي عن ريشتها وتوقف الحياة فيها يعيدنا إلى الفقرة الأخيرة في «البارون ساكن الأشجار» عندما يتحدث الأخ الراوي بدوره عن رؤيته هو لفعل الكتابة: يشبه ذلك الخيط من الحبر الذي تركته ليجري من صفحة إلى أخرى يملؤها الشطب والإحالات، وعلامات العصبية، والبقع والثغرات.

فالراوي من خلال إمساكه بطرف الخيط، أو ريشته مع المؤلف يرسم لنا خطوط روايته التي يحاول أن يشرح لنا كيف كانت تنفلت منه أحيانًا أو تتمرد عليه ولا تقطر سوى الحبر والبقع، ليخلق منها في النهاية عملاً إبداعيًا من كلاسيكيات الأدب العالمي.

د. أماني فوزي حبشي

- 1 -

احتشد الجيش الفرنسي أسفل الأسوار الوردية لباريس، إذ إن شارلمان سيمر للتفتيش على الفرسان. اصطف الفرسان هناك منذ ثلاث ساعات، وكان الجو حارًا، فقد كانت ظهيرة أحد أيام بدايات الصيف المغطاة قليلاً بالسحب، وبداخل الدروع العسكرية كانوا يغلون كأنهم وضعوا بداخل قِدر فوق نيران هادئة. لا بد أن أحد الفرسان في وسط هذا الصف الثابت قد فقد وعيه بالفعل أو راح في سُبات عميق، ولكن الدروع الحديدية التي يرتدونها كانت تثبتهم جميعًا فوق سروجهم بالطريقة نفسها.

وفجأة تعالت ثلاث نغمات من البوق، وأخذ ريش الخوذات يتراقص في ذلك الهواء الساكن كأنه في مهب الريح، وصمت على الفور ذلك الصوت الشبيه بالخوار البحري الذي كان يُسمع عن بُعد، والذي يتضح الآن أنه كان غطيط أحد الجنود، متضخمًا بسبب الخوذات المعدنية لدروعهم الحديدية.

وأخيرًا، ظهر شارلمان يتقدم من بعيد، واضعًا يديه على سرجه، كان يبدو متقدمًا في السن، لحيته تتدلى على صدره. كان يملُك ويُحارب، ثم يملُك ويُحارب، وهكذا. كان يبدو كأنه شاخ منذ المرة الأخيرة التي رآه فيها هؤلاء الجنود.

كان يوقف حصانه أمام كل ضابط، ويلتفت لينظر إليه من أعلى إلى أسفل، ويقول: ومن أنت يا فارس فرنسا؟

- سالومون دي بريطانيا يا سيدي!

كان الفارس يجيبه بأعلى صوته وهو يرفع غطاء الخوذة ويكشف عن وجهه الذي لفحته الشمس، وكان عادة يضيف بعض المعلومات العملية مثل: خمسة آلاف فارس، ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي مشاة، ألف وثمانمائة من الخدمات، وخمسة أعوام من الحملات العسكرية.

كان شارلمان يقول: لتتقدم مع البريطانيين أيها الفارس!

وتسمع خطوات حصانه (توك توك، توك توك) ، ليصل إلى قائد فرقة آخر.

ويقول: ومن أنت يا فارس فرنسا؟

ـ أولييفيرى من النمسا يا سيدي!.

ويمسح شفتيه بمجرد أن يرتفع غطاء خوذته ويبدأ: ثلاثة آلاف فارس مختار، سبعة آلاف جندي، عشرون آلة حصار. انتصرت على الوثني (فيير ابراتشا) بفضل الله، ولمجد شارل ملك الفرنجة!

ـ أحسنت عملاً أيها النمساوي الشجاع.

كان شارل يعقب إلى الضابط ثم يتوجه للضباط التابعين له قائلًا: إن تلك الخيول نحيفة جدًا، لتزيدوا لها حصة الطعام.

ثم يستمر في التقدم.

ـ ومن أنت يا فارس فرنسا؟ كان يردد دائمًا السؤال نفسه، ويحصل على النغمة نفسها في الإجابة: تاتتا-تتاتاي-تاتا تاتا ...

ـ برناردو من مونبيلييه يا سيدي! المنتصر في بروناමونتي وجاليفرنو.

ـ جميلة هي مدينة مونبيلييه ! مدينة النساء الجميلات!

ـ ثم يقول لتابعه: لنرَ إمكانية ترقيته.

جميعها كانت أشياء تسبب السعادة، إذا قالها ملك تسبب السعادة، ولكنها كانت القفشات نفسها منذ عدة أعوام.

- ومن أنت إذن بذلك الشعار الذي أعرفه جيداً؟

كان يتعرفهم جميعًا من الشعار الموضوع فوق التروس، ولم يكن أي منهم بحاجة إلى أن يقول أي شيء، ولكن هكذا كانت العادة، أن يعلنوا بأنفسهم عن هويتهم وأن يكشفوا وجوههم، حيث يمكن لأحدهم، إذا كان لديه أمر أهم من التفتيش، أن يرسل آخر مكانه بداخل درعه الحديدي.

ـ آلاردو دي دوردونا من دوقية آموني...

ـ رائع يا آلاردو، شيء يقوله الأب... وهكذا تستمر النغمة "تاتاتتا، تتتاي، تاتا تاتا ... تاتاتا."

ـ جوالفري من مونجويا! ثمانية آلاف فارس غير من ماتوا!

كان الريش يتطاير: أوجيري من الدانمرك! ناموا من بافييرا! بالميرينو من إنجلترا!

وحل المساء، ولم يعد بالإمكان تمييز الوجوه جيدًا ما بين غطاء الفم وغطاء الرأس، وأصبحت كل كلمة وكل إيماءة متوقعة الآن. وهكذا أيضًا كل شيء في هذه الحرب التي استمرت أعوامًا كثيرة، كل صدام وكل مبارزة، كانت كلها تتم تبعًا لتلك القواعد، وهكذا كان يمكن اليوم معرفة مَنْ سيفوز غدًا، ومَنْ سيخسر، ومن سيصبح بطلاً، ومن سيجبن، ومن ستنزع أحشاؤه، ومن سيستطيع أن ينجو فقط بأن يُنتزع سرجه ليسقط أرضًا. وفي المساء على أضواء المشاعل، كان الحدادون يطرقون على الدروع، الطرقات نفسها.

ـ وأنت؟

وصل الملك أمام فارس يرتدي درعًا بيضاء اللون وليس فيها سوى خط أسود حول حوافها، وفيما عدا ذلك الخط كانت الدرع ناصعة البياض، نظيفة جدًا، معتنى بها عند كل وصلاتها، وكانت الخوذة مزينة بريشة نوع ما من الدجاج الشرقي، وملونة بكل ألوان الطيف. وعلى الدرع كان هناك شعار مرسوم على حافتي رداء عريض متدل، وبداخل الشعار توجد حافتان تفتحان حافتي لرداء آخر في وسطه شعار أصغر، يحتوي بدوره على شعار آخر أصغر. وبتصميم أدق في كل مرة، كان يظهر توال من الأردية التي تفتح واحدًا تلو الآخر، وفي الداخل، كان هناك بالضرورة شيء ما، ولكنه شيء لا يمكن تمييزه نظرًا لأن الرسم كان يزداد دقة. قال شارلمان، الذي، كان كلما زادت مدة الحرب، يقل احترامه لنظافة الفرسان التي يراها أحيانًا:

ـ وأنت يا مَنْ تقف هناك في قمة النظافة.

جاءه صوت معدني من داخل الخوذة المغلقة، كأنه صوت لا يخرج من الحنجرة، بل كأن معدن الدرع نفسه يرتجف، ومعه دوى صدى منخفض: أنا أجيلولفو إيمو برتراندينو داي جولديفيرني وديللي التري دي كوربنتراز وسورا، فارس سليمبيا، شيترويري وفيز.

قال شارلمان: آه ه ه.. ، ودفع شفته السفلى إلى الأمام مصدرًا صفيرًا خفيفًا كأنه يقول: كان لا بد أن أتذكر أسماء الجميع، لقد أصابتني الشيخوخة؟

ولكن سرعان ما حك حاجبيه قائلاً: ولماذا لا ترفع الغطاء وتُظهر وجهك؟

لم يقم الفارس بأية إيماءة، بل ظلت يمناه المغطاة بالقفاز الحديدي ممسكة بالرمح بقوة أكثر، في حين أن يسراه، التي كان يُمسك بها الترس

بدت كأنها اهتزت برعشة. أصر شارلمان: إنني أتحدث معك أيها الفارس! كيف لا تظهر وجهك لملكك؟؟!

خرج الصوت صافيًا من وراء الغطاء الأمامي لسلسلة اللجام : لأنني بلا وجود يا سيدي!

صاح الإمبراطور: لم يكن ينقصنا إلا هذا! والآن أصبح لدينا في قواتنا أيضًا فارس لا وجود له! دعني أراك.

بدا أجيلولفو مترددًا للحظة، ثم بيده الثانية وببطء رفع غطاء وجهه. كانت الخوذة فارغة، ولم يكن هناك أحد بداخل الدرع البيضاء ذات الريشة الملونة بألوان الطيف.

قال شارلمان: آه آه، يا للعجب!! وكيف إذن تقدم خدماتك للجيش إذا كنت بلا وجود؟

قال أجيلولفو: بقوة الإرادة، وبالإيمان بالقضية المقدسة!

ـ فعلًا فعلًا أحسنت القول، هكذا بالفعل يؤدي المرء واجبه! حسنًا! إنك في وضعك، كشخص غير موجود، ماهر بالفعل!

كان أجيلولفو آخر الفرسان في الصف، وكان الإمبراطور قد انتهى من المرور على الجميع، فاستدار بجواده وابتعد في اتجاه المخيم الملكي. كان مسنًا، وكان يحاول أن يبعد عن ذهنه المسائل المعقدة.

أطلق البوق إشارة حل الصفوف. وبدأ التفرق المعتاد للخيول، وتفرقت الغابة الضخمة المكونة من الرماح، وأخذت تتحرك في أمواج كأنها حقل قمح في مهب الريح. أخذ الفرسان يترجلون من فوق صهوات خيولهم، وأخذوا يحركون أقدامهم في محاولة لفردها، واصطحب حاملو الدروع الخيول إلى الإسطبلات. ثم ابتعد الفرسان عن الفوضى والأتربة، وتجمعوا في مجموعات متصلة من الريش الملون، ذلك في محاولة للتسرية عن

أنفسهم بالقفشات، والتهريج، وبالثرثرة عن النساء وسيرتهن، بعد ذلك السكون الإجباري لتلك الساعات.

تقدم أجيلولفو بضع خطوات لينضم إلى إحدى تلك المجموعات، ثم من دون سبب انتقل إلى مجموعة أخرى، إلا أنه لم يمكث كثيرًا، ولم يعبأ أحد بوجوده. مكث هنيهة مترددًا خلف أحدهم أو خلف آخر، دون أن يشارك في أي من الحوارات، ثم انعزل جانبًا. كان وقت الغروب، وعلى خوذاتهم بدا الريش الملون كأنه جميعًا من لون واحد غير مميز، ولكن كانت الدرع البيضاء تبرز واضحة هناك في المرعى. وبدا كأن أجيلولفو شعر فجأة بأنه عارٍ فعقد ذراعيه وضم كتفيه بقوة.

ثم اهتز، وفي خطوة واسعة اتجه نحو الإسطبلات، وبمجرد أن وصل إلى هناك وجد أن العناية بالخيول لم تتم حسب القواعد، فانتهر عمال الإسطبلات، وفرض عقوبات على العاملين، وفحص كل دوريات العمال وأعاد توزيع المهام شارحًا بدقة لكل منهم كيف يجب تنفيذ مهمته، بل جعل كلاً منهم يردد ما قاله ليتأكد أنهم قد فهموا جيدًا.

ونظرًا إلى أنه من حين إلى آخر كان يتضح له أيضًا التقصير في خدمة الضباط زملائه، كان يدعوهم واحدًا تلو الآخر، نازعًا إياهم من أحاديثهم الممتعة ولهو المساء، وموضحًا تقصيرهم بتحفظ ولكن بدقة، مجبرًا أحدهم على الذهاب إلى الثكنات، والآخر إلى نوبة الحراسة والثالث إلى الإسطبل، وهكذا.

كان دائمًا على حق، ولم يكن الفرسان يستطيعون التملص منه، ولكنهم لم يكونوا يخفون استياءهم. كان أجيلولفو برترندينو داي جولديفيري وديللي آلتري دي كوربينتراز وسورا، فارس سيليميا شيتريوري وفيز بالتأكيد نموذجًا للجندي المثالي، ولكنه بالنسبة إليهم جميعًا كان مثيرًا للضجر.

- 11 -

كان الليل بالنسبة إلى الجيوش في الميدان منظمًا مثل السماء المليئة بالنجوم؛ كانت هناك دوريات وضباط للحراسة، والفرق. بالإضافة إلى الاضطراب الدائم للجيش في أثناء الحرب، وتلك الحركة اليومية للذهاب والإياب، والتي تظهر من خلالها المفاجآت مثل هيجان الخيول، وغير هذا. كل هذا يلفه الصمت الآن، نظرًا إلى أن النوم قد هزم كل المحاربين بل كل الدواب في الجيش المسيحي، تلك الدواب المنتظمة في صفوف والواقفة على أقدامها، تُسمع أصوات احتكاك حدواتها بالأرض أحيانًا، وأحيانًا أخرى يُسمع صوت صهيل ونهيق. أما هؤلاء الذين تخلصوا أخيرًا من الخوذات والدروع، والسعداء لأنهم عادوا أخيرًا آدميين مميزين، فلا يمكن الخلط بين أحدهم والآخر، ها هم قد عادوا بالفعل يغطون في نومهم.

ومن الجهة الأخرى في معسكر الأعداء، لا يختلف الوضع كثيرًا، الخطوات نفسها، خطوات الذهاب والإياب للحراس، رئيس الدورية الذي يراقب اندفاع الرمال الأخيرة في الساعة الرملية ليذهب لإعداد الرجال لتغيير الدورية، والضابط الذي يستغل فرصة الحراسة الليلية ليكتب

خطابًا لزوجته. الفرق المسيحية وفرق الأعداء يسير كل منها مسافة نصف ميل، حتى يكاد يصل إلى الغابة ثم تستدير، فيتجه بعضها إلى ناحية، والآخر إلى الناحية الأخرى دون أن يلتقيا قط، وتعود كل فرقة بعد ذلك إلى المعسكر لتبلغ أن كل شيء هادئ، ثم يذهبون إلى أسرتهم. النجوم، ومعها القمر، تجري في هدوء فوق المعسكرين الخصمين. لا يوجد مكان أفضل من الجيش ينام فيه المرء في هدوء.

أجيلولفو فقط لا يستمتع بتلك الراحة في الليل، ففي داخل درعه البيضاء كان يتحرك في كل الاتجاهات. أسفل خيمته، أفضل وأكثر الخيمات نظامًا وراحة في المعسكر المسيحي، كان يحاول أن يستلقي، إلا أنه كان مستمرًا في التفكير، ليس في الأفكار التافهة والمسلية لشخص على وشك النوم، ولكن في أفكار محددة ودقيقة. وبعد قليل استند إلى ذراعيه ليرفع نفسه قليلاً، حيث شعر بالرغبة في أن يشغل نفسه بأي عمل يدوي، كتلميع سيفه مثلاً، الذي كان بالفعل متلألئًا، أو أن يزيل الشحم عن مفاصل درعه. لم يستمر هذا الوضع طويلًا، فها هو ينهض بالفعل، ويخرج من خيمته وهو يحتضن بين ذراعيه الرمح والترس، وخياله الأبيض المضيء يعبر المعسكر.

ومن داخل الخيام، قمعية الشكل، كانت ترتفع سيمفونية الأنفاس الثقيلة لمن ينام بداخلها. ما هي، يا ترى، تلك القدرة على غلق العينين، على فقدان الوعي بالذات، والغرق في فراغ الساعات، ثم الاستيقاظ ليجد المرء نفسه كما كان من قبل بلا تغيير، ليعيد مرة أخرى عقد خيوط حياته. لم يكن أجيلولفو قادرًا على معرفة ذلك، كان حقده على القدرة على النوم التي يتمتع بها الأشخاص الموجودون حقدًا غامضًا كأنه يحقد على شيء لا يستطيع إدراكه.

كان يصدمه ويقلقه بالأخص رؤية تلك الأقدام العارية ذات الأصابع المتجهة إلى أعلى التي تبرز من هنا وهناك عبر حواف الخيام. كان

المعسكر في أثناء النوم هو مملكة الأجساد، امتدادًا لجسد آدم القديم، مكان تفوح منه رائحة النبيذ المحتسى وعرق الحرب اليومي، في حين كانت ترقد بلا نظام عند أعتاب الخيام، تلك الدروع الحربية الفارغة، التي يقوم حاملو الدروع والعاملون بتلميعها وإعدادها في الصباح.

كان أجيلولفو يمر هناك، يقظًا، عصبيًا، شامخ الأنف، كان جسم أولئك الذين يتمتعون بجسم يسبب له بالفعل ضيقًا يشبه الحقد، ولكن كان يعتريه ـ في الوقت نفسه ـ شعور آخر بالفخر، والتعالي. ها هم الزملاء الذين يتمتعون بكل الشهرة، الفرسان العظماء، مَنْ هم في الحقيقة؟ وها هي الدرع الشاهدة على منزلتهم وألقابهم والانتصارات التي حصلوا عليها، وعلى قدرتهم وقيمتهم، ها هي وقد تحول إلى وعاء فارغ، إلى قطعة حديد مجوفة، وها هم هناك يغطون في نومهم، وقد انسحقت وجوههم في وسائدهم، ويتدلى اللعاب من أفواههم المفتوحة.

أما هو فلم يكن بالإمكان تفكيكه إلى أجزاء أو نزع أعضائه، كان وسيظل في كل لحظة من اللحظات في النهار أو في الليل أجيلولفو إيمو بيرتراندينو داي جويلديفري وديللي ألتري دي كوربينراز وسورا، الفارس المدرع لسيليمبا شيتريبوري وفيز، الذي يعمل على نصرة جيوش المسيحية، وقد أنجز كذا وكذا وكذا، وعين في جيش الإمبراطور شارلمان قائدًا لهذه القوات أو تلك. وهو الذي يملك أجمل الدروع وأنصعها بياضًا في المعسكر كله، التي لا يمكن أن تنفصل عنه. وهو الضابط الأكثر كفاءة من كثيرين ممن يفتخرون بأشياء براقة، بل هو أفضل من جميع الضباط. ومع ذلك كان يجول تعسًا في الليل.

وأثناء تجواله سمع صوتًا: سيدي الضابط، أسألك المعذرة، متى ستصل الدورية الجديدة؟ لقد زرعوني هنا بالفعل منذ أكثر من ثلاث ساعات!

كان صوت أحد الحراس مستنداً إلى رمحه كأنه مصاب بالتسمم.

قال أجيلولفو حتى من دون أن يلتفت: أنت مخطئ، لست أنا الضابط المسئول عن الدورية.

وتركه.

ـ سامحني يا سيدي الضابط، عندما رأيتك تجول في هذه المنطقة اعتقدت...

كان أقل تقصير في الخدمة يطلق جنون أجيلولفو، ويجعله يرغب في الإمساك بزمام كل شيء، والعثور على أخطاء وهفوات أخرى في أداء الآخرين، كان يتألم بشدة إذا رأى أي شيء مؤدىً بشكل سيئ أو في غير محله، ولكن نظراً إلى أنه لم يكن ضمن واجباته أن يقوم بتفتيش من ذلك النوع في تلك الساعة، فإن أي تدخل منه سيكون في غير محله، بل سيكون مخالفاً للقواعد. حاول أجيلولفو التماسك، وأن يقصر اهتمامه على مسائل محددة ليركز عليها في الغد، مثل تنظيم بعض المخازن التي يحتفظون فيها بالرماح، أو المخازن التي يحتفظون فيها بالتبن جافاً... ولكن ظله الأبيض كان كثيراً ما يقع بين قدمي قائد المنطقة، أو ضابط الخدمة، أو الفرقة التي تنبش في المخزن بحثاً عن قارورة نبيذ بقيت من الليلة السابقة... وفي كل مرة، كان أجيلولفو يصاب بلحظة تردد: هل يجب أن يتصرف على نحو يفرض احترام السلطة بوجوده، أو أن يتصرف كمن يوجد في مكان لا يحق له الوجود فيه، وعليه أن يتقهقر ويعود إلى الوراء بتحفظ، وأن يتظاهر بأنه لم يكن موجوداً.

وفي وسط ذلك التردد كان يتوقف ويفكر، لم يكن عادة ينجح في اتخاذ أي موقف، كان يشعر فقط أنه يضايق الجميع، وأن لديه الرغبة في عمل شيء ما ليدخل في أية علاقة مع رفاقه، على سبيل المثال بأن يصرخ بالأوامر المطلوبة، أو أن يقوم بمضايقاتهم بوصفه نائبَ عريف، أو أن يستهزئ بهم، ويتلفظ بألفاظ نابية كأنه بين رفاق الحانة.

إلا أنه كان يتمتم ببضع كلمات كأنها تحية غير واضحة، بنوع من الخجل المقنع بالتعالي، أو بنوع من التعالي المشوب بالخجل، ويعبر أمامهم. وكان يبدو له أنهم يوجهون إليه الحديث، عندئذ كان يستدير بصعوبة سائلًا: ماذا؟. لكنه سرعان ما يقنع نفسه بأنهم لم يوجهوا حديثهم إليه، ويبتعد كأنه يفر من شيء ما.

أخذ يتقدم في حدود المعسكر في اتجاه الأماكن المنعزلة ناحية أحد المرتفعات العارية، كانت الليلة ساكنة لا يعبرها سوى خفقان خافت لبعض الظلال غير المتجانسة لأجنحة صامتة، كانت تتحرك حوله من دون أن تحدد اتجاهها ولا للحظة واحدة: كانت الخفافيش. الخفافيش بذلك الجسم البائس المتأرجح بين جسم الفأر والطائر، إلا أنها مع ذلك كانت تمتلك شيئًا ملموسًا وأكيدًا ، شيئًا يمكنها بواسطته أن تتحرك في الهواء بفم مفتوح لتلتهم الناموس، في حين كان يقف أجيلولفو بدرعه، تخترق صدوعه هبات الرياح، وتحليق الناموس وأشعة القمر.

ونما بداخله غضب غير محدد، انفجر فجأة، فنزع سيفه من غمده وأمسكه بكلتي يديه، وأخذ يحركه في الهواء ضد أي خفاش ينخفض. لم يغير ذلك من شيء: استمرت الخفافيش في طيرانها الذي لا بداية له ولا نهاية، متأرجحة قليلاً بفعل تيارات الهواء.

أخذ أجيلولفو يلوح ضربة وراء الأخرى، حتى لم يعد يحاول أن يصيب الخفافيش، ثم أخذت ضرباته القوية تتبع مسارات أكثر انتظامًا، وتزداد انتظاماً تبعًا لنماذج المبارزة بالسيف، ها هو أجيلولفو وقد أخذ يمارس تدريباته كأنه يستعد لخوض المعركة القادمة، وأخذ يستعرض نظرية الضربات المستعرضة، وضربات الدفاع، وضربات التمويه.

ثم توقف فجأة، فلقد برز له شاب من وراء أحد الأسيجة هناك في ذلك المرتفع، وأخذ ينظر إليه. كان مسلحًا بسيف فقط، ويحيط صدره درع خفيفة فقط.

وصاح الشاب: أيها الفارس! لا أرغب في مقاطعتك! هل تتدرب للمعركة؟ لأن هناك معركة في الصباح الباكر، أليس كذلك؟ هل تسمح سيادتك بأن أتدرب معك؟

و بعد فترة صمت ـ لقد حضرت إلى المعسكر بالأمس، ستكون هذه معركتي الأولى... وكل شيء هنا مختلف تمامًا عما كنت أتوقعه.

كان أجيلولفو في تلك اللحظة في قمة غضبه، كان يمسك بسيفه مضمومًا إلى صدره، عاقدًا ذراعيه، وقال: إن الاستعداد لتلاحم مسلح، تصدر أوامره من القيادة، يتم التصريح به للسادة الضباط وللقوات قبل بداية العمليات بساعة واحدة.

أصيب الشاب بالارتباك لوهلة، كأن شيئًا ما أوقف حماسته فجأة، ولكن بمجرد أن تغلب على ارتباكه البسيط استأنف بحماسته السابقة قائلاً: الحقيقة أنني وصلت الآن ... لأنتقم لأبي... وأريد أن تخبروني، أنتم الأقدم هنا، إذا سمحتم بذلك، ماذا يجب أن أفعل لأجد نفسي في المعركة في مواجهة ذلك الكلب الوثني الآرجاليف إيزاوري، أجل، هو بالذات، وأن أغمد رمحي في ضلوعه مثلما فعل هو مع أبي البطل، العظيم، الماركيز جيراردو دي روسيليوني.

الأمر بسيط جدًا أيها الشاب. قال أجيلولفو، الذي كان في صوته أيضًا بعض الحماسة، وهي حماسة مَنْ يعرف عن ظهر قلب القواعد والنظام ويستمتع باستعرض إمكاناته، وإرباك الآخرين لقصور معرفتهم. وأكمل: يجب أن تقدم طلبًا للإدارة العليا لشئون المبارزات والانتقام وتلطيخ الشرف، موضحًا أسباب طلبك هذا، وسيتم دراسة كيفية وضعك بأفضل طريق لتحصل على ما ترغب فيه.

أما الشاب، الذي كان ينتظر على الأقل إشارة إعجاب أو تبجيل لاسم والده، فلقد شعر بالإهانة بسبب نبرة الحديث أكثر مما يحويه من معنى.

ثم حاول أن يتأمل الكلمات التي قالها له الفارس، ولكن في محاولة أخرى لإنكار تلك الكلمات بداخله ونسيانها، ومن أجل الاحتفاظ بحماسته الحيوية قال: ولكن أيها الفارس أنا لست مهتمًا بالإدارة العليا لشئون المبارزات، لابد أنك تفهمني، إن ما يهمني هو معرفة إذا كانت الشجاعة التي أشعر بها ستكفيني في المعركة لأنتزع أحشاء مائة من أولئك الكفار، وأيضًا إذا كانت مهارتي ستكفيني في استخدام السلاح، لأنني قد تمرنت جيدًا، أتعرف ذلك؟ ولذلك فأنا أقول إننا هنا في وسط ذلك الحشد الكبير وقبل أن أعرف اتجاهي... لا أعرف... إذا لم أجد ذلك الكلب، أو إذا فرّ مني، أريد أن أعرف ماذا تفعل أنت في مثل هذه الحالة، أيها الفارس، عندما يكون هناك أمر يخصك في خضم المعركة، موضوع يمسك ويهمك أنت وحدك...

أجاب أجيلولفو بجفاء: أتبع الأوامر بدقة، أنت أيضًا افعل هذا ولن تخطئ أبدًا.

قال الشاب، وقد وقف هناك كأنه تيبس: سامحني، لم أكن أرغب في إزعاجك، كنت أفضل إذا استطعت أن أقوم ببعض التدريبات على السيف معك، مع فارس مثلك! لأننى كما تعلم ماهر في المبارزة بالسيف، ولكن أحيانًا، في الصباح الباكر تكون عضلاتي متيبسة، وباردة، ولا تتحرك كما أريد، هل يحدث هذا أحيانًا لك أنتَ أيضًا؟

قال أجيلولفو: لي أنا، أبدًا!

وكان قد استدار بالفعل وابتعد عنه.

اتجه الشاب إلى المخيمات، وذلك في الساعة التي تسبق الفجر. ولاحظ بداية حركة بين الخيام. وبالفعل، قبل ساعة الاستيقاظ كان القادة يقفون على أقدامهم.

وفي خيمة القادة، والمكتب الرئيس للقيادة، أضيئت المشاعل لتتلاقى مع الضوء الخفيض القادم من السماء. هل هذا بالفعل يوم المعركة، ذلك اليوم الذي أوشك على البدء ، كما كان يقول البعض بالأمس؟ كان القادم الجديد فريسة للانفعالات، كانت حماسته مختلفة عن تلك المتوقعة منه، وعمّا أحضره إلى هذا المكان، أو من الأفضل أن نقول كان يعتريه القلق من ألا يعثر، مرة أخرى، على أرض يقف عليها، حيث بدا له أن كل ما يلمسه كأنه الفراغ.

التقى في طريقه فرسانًا يرتدون دروعهم الفخمة، ويضعون رءوسهم بداخل الخوذات المزينة بالريش ويغطون وجوههم. أخذ الشاب يدور حول نفسه لينظر إليهم، كادت تتملكه الرغبة في أن يقلد سلوكهم وطريقتهم المتفاخرة، المتعالية في الدوران حول أنفسهم، بدروعهم وأكتافهم المرتفعة كأنهم جزء لا يتجزأ منها. ثم ها هو ذا يجد نفسه بين فرسان لا يُهزمون، وها هو على استعداد ليجاورهم في النزال، وسلاحه بيده، وأن يصبح بدوره مثلهم!

ولكن بدلاً من أن يصعد الفارسان اللذان كان يتبعهما على صهوة جواديهما، جلسا خلف مائدة مزدحمة بالأوراق. كانا بالتأكيد قائدين عظيمين. جرى الشاب بسرعة ليقدم نفسه إليهما : أنا رامبالدو دي روسيليوني، خريج جامعي، ابن البطل الماركيز جيراردو! جئت أنضم إلى الجيش لأنتقم لأبي، الذي مات بطلاً أسفل أسوار إشبيلية!

رفع الاثنان أيديهما كل منهما تجاه الخوذة المزينة بالريش وفصلا الجزء الواقع بين الجبهة والرقبة، ووضعاه فوق المائدة، وأسفل الخوذتين ظهرت صلعتان شاحبتان، وظهر وجهان ذوا جلد مجعد قليلًا، مليء بالحبوب، وشاربان خفيفان، كانا وجهين لكاتبين، موظفين مسنين ممن يلتصقون بالأوراق! وأخذا يرددان وهما يقرآن في بعض اللفائف الورقية ويبل كل منهما إصبعه بلعابه: روسيليوني، روسيليوني... ولكن إذا كنا بالفعل قد سجلنا اسمك بالأمس! فماذا تريد؟ ولماذا لست مع فرقتك؟

ـ لا أدري، هذه الليلة لم يغمض لي جفن، إنه التفكير في المعركة، فأنا ذاهب لأنتقم لأبي، أتعرفون، يجب أن أقتل الأرجاليف إيزاورى، ولذلك فأنا أبحث عن.... أجل: الإدارة العليا للمبارزات وللانتقام وتلطيخ الشرف، أين توجد؟

ـ فلتصغ إلى ذلك الذي وصل لتوه عما يتحدث! ولكن ماذا تعرف أنت عن الإدارة العليا؟

ـ قال لي عنها بالأمس ذلك الفارس، اسمه..، ذلك الذي يرتدي درعًا بيضاء اللون...

ـ أُف، لم يكن ينقصنا سوى ذلك الآن، بالتأكيد، فهو لا بد أن يدس أنفه، الذي ليس لديه، في كل شيء!

ـ ماذا؟ ليس لديه أنف؟

ـ نظرًا إلى أنه لا يمكن أن يصاب بالجرب ـ قال الآخر الذي يجلس بجوار المائدة ـ لا يجد شيئًا أفضل من أن يحك جرب الآخرين.

ـ لماذا لا يصاب بالجرب؟

ـ وفي أي موضع تريده أن يصاب بالجرب إذا لم يكن لديه أي شيء؟ إن ذلك الفارس بلا وجود...

ـ ولكن كيف يكون بلا وجود ؟ لقد رأيته بنفسي! كان موجودًا.

ـ ما الذي رأيته؟ درعًا حديدية.. إنه شخص موجود من دون أن يكون له وجود. هل فهمت أيها الفتى؟

لم يكن الشاب رامبالدو يتخيل قط أن المظاهر يمكن أن تكون خادعة إلى هذا الحد، فمنذ اللحظة التي وصل فيها إلى المعسكر كان يكتشف أن كل شيء بخلاف ما يبدو عليه...

ـ إذن في جيش شارلمان يمكن أن يوجد أيضًا فرسان يحملون أسماء عظيمة وألقابًا، بل يوجد ضباط ومقاتلون شجعان من دون الحاجة إلى أن يكون لهم وجود!

ـ مهلاً!! لم يقل أحد: في جيش شارلمان...إلخ! قلت لك إنه فقط في كتيبتنا هذه يوجد فارس كذا وكذا... هذا كل ما في الأمر. الحديث بشكل عام عما له وجود وما ليس له وجود، هو أمر لا يخصنا. هل فهمت؟

اتجه رامبالدو إلى خيمة الإدارة العليا للمبارزات والانتقام وتلطيخ الشرف. والآن لن يدع الدروع والخوذات ذات الريش تخدعه، فلقد أدرك أنه خلف تلك الموائد تُخفي الدروع رجالاً غاية في الضآلة والنحافة يعلوهم التراب، بل حمد الله أنه يوجد بداخلها أحد!

ـ هكذا إذن فأنت تريد أن تنتقم لوالدك الماركيز روسيليوني، الذي كان برتبة جنرال! فلنرَ، الانتقام لموت جنرال: الإجراء الأفضل هو قتل ثلاثة برتبة رائد، ويمكننا أن نحدد لك ثلاثة في غاية السهولة ويتم كل شيء.

ـ لا بد أن كلامي لم يكن واضحًا بما يكفي، يجب أن أقتل الأرجاليف إيزاورى، إنه هو شخصيًا الذي أسقط أبي الشجاع صريعًا!

ـ نعم نعم، فهمنا ذلك، ولكن لا تتصور أن إسقاط الأرجاليف هو شيء هين... هل ترغب في قتل أربعة برتبة قائد؟ يمكننا أن نضمن لك أن تقتل أربعة من الأعداء برتبة قائد صباح الغد. لتلاحظ أن أربعة برتبة قائد نمنحهم في حالة الانتقام لجنرال جيش في حين أن أباك لم يكن سوى جنرال فرقة فقط.

ـ أنا أبحث عن إيزاوري لأنزع أحشاءه! هو، وهو فقط!

ـ إذن لتتأكد أن الأمر سينتهي بك إلى السجن وليس إلى ميدان المعركة! فكر قليلًا قبل أن تتكلم! إذا كنا نعرقل لك الأمر بالنسبة إلى إيزاورى، فإنه لا بد أن هناك سببًا ما... إذا ربما يكون إمبراطورنا حاليًا لديه، على سبيل المثال، بعض الاتفاقات مع إيزاوري...

ولكن أحد أولئك الموظفين، الذي كان حتى تلك اللحظة منغمسًا برأسه بين الأوراق نهض مبتهجًا: كل شيء له حل! لا حاجة إلى أن نفعل أي شيء! ليس هناك داعٍ إلى انتقام لا يفيد! قام أوليفيري منذ بضعة أيام بالانتقام لعميه، معتقداً أنهما قد قتلا في المعركة! إلا أنه اكتشف أنهما كانا مخمورين أسفل إحدى الموائد! وسنجد بالانتقام لهذين العمين أكثر مما نحتاج إليه. والآن كل شيء على ما يرام، فنحن نعد الانتقام لعم كنصف انتقام للأب، كأن لدينا انتقامًا كاملاً للأب تم تنفيذه بقتل هذين العمين.

ـ آه، يا أبي! كاد رامبالدو يُجن.

ـ ولكن ماذا دهاك؟

دق جرس الاستيقاظ، واحتشد المسلحون في المعسكر مع أول ضوء للصباح. كان رامبالدو يرغب في أن ينضم إلى تلك الحشود التي اتخذت شكل الأعلام واللافتات المربعة رويدًا رويدًا، ولكن بدا له أن طرقات الحديد تلك كأنها اهتزازات أغلفة الحشرات، وطقطقة قشورها الجافة. كان كثير من المحاربين يرتدون فقط خوذاتهم والجزء العلوي من الدروع، أما الجزء الأسفل فقد كانت أقدامهم تبرز بدلا منه مرتدين السراويل والجوارب، لأنهم كانوا يضعون الجزء الأسفل من الدروع عندما يصعدون فوق صهوة جيادهم. كانت أقدامهم أسفل تلك القشور النحاسية تبدو أكثر نحافة، كأنها أقدام صرصور، وكانت الطريقة التي يتحركون ويتكلمون بها، بتلك الرؤوس الدائرية التي لا عيون لها. وكذلك الذراعان المنتفختان بغطاء المرفقين، واليدان المطويتان، فيما يشبه طريقة الصراصير أو النمل، جعلت كل تحركاتهم تشبه تحركات مخالب حشرات غير واضحة المعالم.

وفي وسطهم، كانت عينا رامبالدو تبحثان عن شيء ما، إنه الدرع البيضاء لأجيلولفو، الذي كان يتمنى أن يلتقيه، ربما لأن ظهوره كان سيحول باقي الجيش إلي شيء ملموس أكثر، أو ربما لأن ذلك الفارس غير الموجود هو في الحقيقة أكثر وجودًا صلابة تقابل معه منذ وصوله.

وأخيرًا لمحه أسفل شجرة صنوبر، جالسًا على الأرض، حيث كان ينظم ثمار الصنوبر الصغيرة التي سقطت، وذلك وفقًا لتصميم منتظم على شكل مثلث متساوي الضلعين. ففي تلك الساعة المبكرة من الصباح كان أجيلولفو يحتاج دائمًا أن يمارس تدريبًا ما للدقة، وذلك بأن يُحصي الأشياء وينظمها في أشكال هندسية، أو بأن يحل المسائل الرياضية. إنها الساعة التي تفقد فيها الأشياء الظلال التي تحيط بها، والتي صاحبتها طوال الليل، لتكتسب ألوانها رويدًا رويدًا، ولكنها في الوقت نفسه تمر بشيء غير مؤكد كأنه الليمبو في بداية ظهوره، كأن الضوء يحيط بها. إنها تلك الساعة التي يكون فيها كل شيء أقل ثقة في وجود العالم.

كان أجيلولفو بحاجة دائمة إلى أن يشعر بوجود الأشياء أمامه كأنها حاجز منيع يُعارض كل توترات إرادته، وهكذا فقط كان ينجح في أن يحتفظ بوعي بذاته وبوجوده أكثر ثباتًا.

ولكن عندما كان العالم حوله يغرق في عدم الثقة والغموض، كان هو أيضًا يغرق في تلك الظلال الرخوة، ولم يكن ينجح قط في أن ينتج رؤية مميزة، أو قرارات مفاجئة، أو إصرارًا ثابتًا، بل كان يشعر في هذه الأحوال بالتعب، كانت تلك هي اللحظات التي يشعر فيها بأنه يتهاوى، وفقط بمجهود جبار كان ينجح في ألا يتلاشى. عندئذ كان يبدأ في الإحصاء: إحصاء الأوراق والأحجار، الرماح وثمار الصنوبر، وأي شيء يجده أمامه. كان يضع تلك الأشياء في صفوف، أو ينظمها في مربعات أو في أشكال هرمية. وكان الانهماك في تلك المهام يسمح له بالتغلب على آلامه وابتلاع أحزانه وقلقه، وكان يسمح له بأن يستعيد بريقه وتماسكه المعتادين.

وهكذا رآه رامبالدو وهو يضع ثمار الصنوبر في حركات دقيقة جدًا ومركزة وسريعة على شكل مثلث، ثم في مربعات على جوانب المثلث، وكان يجمع بإصرار ثمار الصنوبر في مربعات، مقارنًا إياها بما يوجد بمحيط وتر مثلث قائم الزاوية. كان رامبالدو يفهم أن كل شيء هنا يسير وفقًا

لطقوس وأعراف وترتيبات. ولكن ما الهدف وراء ما يفعله الفارس الآن؟ وشعر بأنه مأخوذ بخوف لا تعريف له، حيث شعر أنه خارج كل قواعد تلك اللعبة.... ولكن أليست رغبته هي أن ينتقم لأبيه، بالإضافة إلى حماسته للقتال، وأن ينضم إلى صفوف شارلمان، ألم يكن ذلك أيضًا طقسًا لكي لا يغرق في اللاشيء، مثل حركة رفع ثمار الصنوبر وتركها، التي يقوم بها الفارس أجيلولفو؟ وعندما شعر بالإحباط من الاضطراب الذي أصابه نتيجة لكل تلك التساؤلات غير المتوقعة، ألقى الشاب رامبالدو بنفسه أرضًا وانفجر في البكاء. شعر بشيء ما قد وُضع فوق رأسه، كانت يد من حديد لكنها خفيفة، كان أجيلولفو قد انحنى بجواره: ماذا بك أيها الفتى؟ لماذا تبكي؟

كانت حالات الضياع أو اليأس أو الغضب لدى الآدميين تمنح أجيلولفو على الفور شعورًا بالهدوء والثقة الكاملين. كان يشعر بأنه محصن وبعيد عن الاضطرابات والأحزان التي يسقط فيها مَنْ له وجود، وكان ذلك يدفعه لأن يتخذ سلوكًا أكثر رفعة وحماية.

قال رامبالدو: اعذرني، ربما أشعر بالتعب، لم أستطع إغماض عينيَّ طوال الليل، والآن أشعر كأنني غريق. كان يمكن أن أغمض عينيَّ على الأقل لحظة واحدة، ولكن الآن وقد بدأ النهار... وأنت أيضًا كنت يقظًا طوال الليل، كيف تتصرف؟

قال أجيلولفو ببطء: يمكنني أن أشعر بالضياع إذا غفلت لثانية واحدة، بل لن أجد نفسي أبدًا، وسأفقد نفسي إلى الأبد. ولذلك أقضي كل لحظة من نهاري ومن ليلي وأنا يقظ جدًا.

ـ لا بد أنه شيء سيئ...

ـ لا.

وعاد الصوت ليكون جافًا وقويًا.

- ألا تنزع هذه الدرع قط من فوق كتفيك؟

عاد ليتمتم: لا توجد كتفان، النزع أو الوضع بالنسبة إليّ كلمتان لا معنى لهما.

كان رامبالدو قد رفع رأسه وأخذ ينظر في الفتحات الموجودة في غطاء الخوذة، كأنه يبحث عن شيء ما في ذلك الظلام، أو عن وميض أية نظرة.

- وما شعورك تجاه ذلك؟

- وكيف يكون الشعور بغير ذلك؟

كانت اليد الحديدية ما زالت موضوعة على شعر الشاب، وكان رامبالدو لا يكاد يشعر بوزنها فوق رأسه، كأنها لا شيء، لم تكن تصل إليه أية حرارة أو اقتراب آدمي سواء معزيًا أو حتى مثيرًا للضيق، إلا أنه كان يشعر كأن هناك عنادًا متوترًا قد بدأ يسري بداخله.

- III -

كان شارلمان يركض ممتطيًا جواده، متقدمًا جيش الفرنجة. كان الجيش متقدمًا في المسيرة، ولم تكن هناك أسباب للعجلة، ولذلك لم يكن مسرعًا. تجمع الفرسان حول الإمبراطور، محاولين إبطاء سرعة خيولهم التي تجري مسرعة بجذبها من لجامها، وفي أثناء حركة الركض تلك ورفعهم دروعهم الفضية اللون كانوا يرتفعون ويهبطون كأنهم زعانف سمكة. كان الجيش كله مثل سمكة طويلة مغطاة بالقشر، حيث كان يشبه ثعبان البحر.

كان الفلاحون والرعاة والسكان يهرعون ليقفوا على حافة الطريق - ها هو الملك! ها هو شارل! وكانوا ينحنون وهم ينظرون إلى الأرض مبهورين بذقنه أكثر من انبهارهم بتاجه الغريب، ثم يبدءون في رفع رؤوسهم في محاولة للتعرف إلى الفرسان؛ هذا هو أورلاندو، لا، إنه أولفييري! ولم يكونوا ينجحون قط في التخمين، ولكن الأمر كان سيانًا، لأن هؤلاء جميعًا كانوا موجودين، وكان يمكنهم القسم دائمًا أنهم رأوهم حقًا.

كان أجيلولفو، وهو يركض مع المجموعة، يظهر من حين إلى آخر وهو يتقدمهم قليلًا ثم كان يتوقف لينتظر الآخرين، وكان يلتفت إلى الوراء

ليتأكد إذا كانت المجموعة تتبعه بتماسك، أو كان ينظر نحو الشمس كأنه يحسب التوقيت من ارتفاعها في الأفق. كان متبرمًا، فقد كان هو فقط الوحيد الذي يحمل في ذهنه ترتيب المسيرة ومراحلها، والمكان الذي يجب أن يصلوا إليه قبل حلول الظلام. أما الفرسان الآخرون، فقد كانوا بالطبع يسيرون بخطوات متقاربة سواء أكانوا يسيرون ببطء أم بسرعة، إلا أنهم كانوا دائمًا متقاربين، وكانوا على استعداد أن يتوقفوا عند كل حانة ليشربوا بحجة أن الإمبراطور المسن يشعر بالتعب. لم يكونوا يرون من الطريق سوى لافتات الحانات ومؤخرات الخادمات، وذلك ليقولوا لهن بعض الكلمات الوقحة، وفيما عدا ذلك كانوا يسافرون كأنهم معبئون في صندوق.

وكان شارلمان لا يزال أكثر من يبدي تعجبًا أمام كل الأشياء المتنوعة التي تظهر في الطريق؛ فكان يصيح متعجبًا: أوه، البط، البط!.

كان هناك سرب من البط يسير في المراعي طيلة الطريق، ووسط هذا السرب كان هناك رجل، ولكن لم يكن واضحًا ماذا يفعل هناك، كان يسير الهوينى، ويداه خلف ظهره، وكان يرفع قدميه المفلطحتين وكأنه من الخفيات، ورقبته ممدودة وهو يقول: كوا ... كوا ...كوا .... ولم يكن البط يعيره أدنى اهتمام، كأنه واحد منه. في الواقع لم يكن هناك اختلاف كبير للناظر بين الرجل والبط، لأن الشيء الذي كان الرجل يرتديه لونه قمحي ترابي (وكانت مساحات كثيرة منه تبدو كأنها أجزاء من أجولة موضوعة معًا)، ولذلك كانت تظهر فيه مناطق عريضة من الرمادي الأخضر تشبه تمامًا الريش، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك رقع وأثمال وبقع من ألوان متنوعة مثل العلامات المتقزحة الألوان لتلك الطيور.

ـ هيه، أنت هناك، هل يبدو ما تفعله في نظرك طريقة للانحناء للإمبراطور؟

صرخ فيه الفرسان الذين كانوا دائمًا على استعداد للتحرش بالآخرين.

لم يلتفت الرجل، ولكن أخذ البط كله الذي أصيب بالفزع يرفرف إلى أعلى. تأخر الرجل لوهلة قبل أن ينظر إلى الطيور وهي ترتفع، رفع أنفه إلى الهواء ثم فرد ذراعيه، وانطلق يقفز، وهكذا، انطلق يضحك ويصرخ "كوا، كوا" بصوت تغمره السعادة، وهو يقفز ويحرك ذراعيه المنبسطتين اللتين كانت تتدلى منهما أثمال مهلهلة، محاولاً اتباع السرب.

وكان هناك مستنقع، فطار البط حتى ذهب ليحط على صفحة المياه، وبخفة وبجناحين مطويين أخذ يبتعد وهو يسبح. ألقى الرجل، بمجرد وصوله إلى المستنقع بنفسه في المياه بوجهه، فتناثر حوله رذاذ كثير وأخذ يتحرك بإيماءات عشوائية وحاول مرة أخرى أن يصيح "كوا، كوا"، إلا أن صيحاته تحولت إلى أصوات قرقرة لأنه كان يغوص إلى أسفل، ثم يطفو ويظهر من جديد، ثم يحاول السباحة، ثم يغطس مرة أخرى.

سأل المحاربون فلاحة صغيرة كانت تسير وفي يدها عصا: هل هذا هو حارس البط؟

قالت الفلاحة الصغيرة : لا، أنا التي أحرس البط، فهو ملكي، لا دخل له به. هذا جوردولو.

ـ وماذا كان يفعل مع بطك؟

ـ آه، لا شيء، من حين إلى آخر يحدث له هذا، بمجرد أن يراه، يخطئ، ويعتقد أنه هو..

ـ يعتقد أنه بطه هو أيضًا؟

ـ يعتقد أنه هو البط... أنتم تعرفون جوردولو، لا يركز كثيرًا...

ـ ولكن إلى أين ذهب الآن؟

اقترب الفرسان من المستنقع، ولكن لم يكن جوردولو ظاهرًا. وكان البط، بعد أن عبر صفحة المياه، قد عاد من جديد ليسير بين الأعشاب بخطواته المفلطحة، وحول المستنقع، ومن بين أوراق السرخس، ارتفع صوت مجموعة من الضفادع. أخرج الرجل رأسه من المياه فجأة، كأنه تذكر في هذه اللحظة أن عليه أن يتنفس. نظر حوله تائهًا، كأنه لا يفهم ماذا تكون تلك الحافة من الأوراق التي تطفو على المياه على بعد شبر من أنفه، وعلى كل ورقة من أوراق السرخس كان يجلس حيوان أخضر صغير، أملس، ينظر إليه ويصرخ بكل قوته: جرا! جرا! جرا!

أجاب جوردولو بسعادة: جرا! جرا! جرا! وأعقب صراخه قفزات الضفادع من فوق كل أوراق السرخس إلى المياه، ثم من المياه قفزت الضفادع إلى الشاطئ، وصرخ جوردولو: جرا! وقفز هو أيضًا حتى أصبح على الشاطئ، مبتًلا يغطيه الوحل من رأسه إلى قدميه، وأخذ يقفز كأنه ضفدع ويصرخ: جرا! بقوة شديدة، حتى إنه في اندفاعة قوية بين الغاب والأعشاب سقط من جديد في المستنقع.

سأل الفرسان أحد الصيادين: ولكن، ألا يغرق؟

ــ آه! أحيانًا ينسى أومويو نفسه، ويضيع، ولكنه لا يغرق...المأساة تحدث عندما ينتهي به الأمر في الشبكة مع السمك.. في أحد الأيام حدث له هذا بينما كان يصطاد هو بنفسه... ألقى بالشبكة في المياه، ورأى سمكة على وشك الدخول فيها، فتقمصها حتى ألقى بنفسه في المياه ودخل هو الشبكة... أنتم تعرفون الحال مع أومويو...

ــ أومويو؟؟ ولكن ألا يدعى جوردولو؟

ــ نحن نسميه أومويو.

ــ ولكن تلك الفتاة ...

ــ آه! إنها ليست من منطقتنا، ربما يطلقون هم عليه هذا الاسم.

ـ ومن أي بلد هو؟

ـ لا أدري، ثم استدار...

أصبحت مجموعة الفرسان المتطية جيادها بجوار بستان كمثرى، ثماره ناضجة. أخذ المحاربون يغرسون حرابهم في الكمثرى، لتختفي بداخل فتحات خوذاتهم، ثم يتفلون البذور. وبين صفوف الأشجار رأوا جوردولو- أوموبو، كان يقف وفي يديه، وفوق رأسه، وفي ثنيات ردائه ثمار كمثرى.

قال شارلمان مسروراً: انظروا إليه ها هو يصنع من نفسه شجرة كمثرى!

قال أورلاندو: الآن سأهزه! . ثم ضربه.

ترك جوردولو كل ثمار الكمثرى تسقط في آن واحد، وأخذت الثمار تتدحرج من فوق المرعى المنحدر، وبمجرد أن رآها تنحدر لم يتمكن من أن يمنع نفسه من أن يتدحرج هو أيضاً كأنه ثمرة كمثرى فوق المرعى، واختفى هكذا عن أنظارهم.

قال أحد المزارعين المسنين: سامحه يا جلالة الملك! أحياناً لا يفهم مارتينزول أن مكانه الحقيقي ليس بين النباتات أو الثمار التي لا روح لها، وأن مكانه الحقيقي بين رعايا مولانا المخلصين!

سأل الإمبراطور بنبرة طيبة: ولكن ماذا يحدث لهذا المجنون الذي تطلقون عليه اسم مارتبزول؟ يبدو لي أنه لا يعرف حتى ما الذي يفكر فيه!

ـ وكيف يمكن أن نفهم نحن هذا يا مولاي؟ ـ وكان البستاني يتحدث بالحكمة المتواضعة لمن خبر أشياء كثيرة في الحياة ـ ربما لا نستطيع أن نقول إنه مجنون، فهو مجرد شخص موجود، ولكنه ليس على دراية بوجوده.

ـ آه يا للروعة! أنا هنا أمام أحد رعاياي موجودًا ولكنه لا يعرف ذلك، ولديّ ذلك الفارس هناك الذي يعرف أنه موجود ولكنه غير موجود. أؤكد لكم أنهما يصنعان معا زوجًا جيدًا!

وكان شارلمان قد شعر بالتعب بالفعل من الجلوس فوق السرج، فترجل وهو يستند إلى حوذي، كان يتنفس بصعوبة ويتمتم: مسكينة فرنسا!

وكأنها إشارة، فبمجرد أن وضع الإمبراطور قدميه على الأرض، توقف الجيش كله، ونصبوا خيامهم، ووضعوا القدور لإعداد الطعام.

قال الملك: أحضروا لي هنا ذلك الجورجور .... ما اسمه؟

قال البستاني الحكيم: يطلقون عليه الأسماء تبعًا للبلدة التي يعبرها، والجيوش المسيحية أو غير المسيحية التي يسير خلفها، فهو أحيانًا جوردولو، أو جودي يوسف، أو بن سطنبول، أو بستانزول، برتينزول، مارتينيون، أو أوموبون، أوموبستيا أو حتى غول الوادي، أو جان بتشاسو، أو بير باتشوجو، ويمكن أن يحدث أن يطلقوا عليه في إحدى المزارع البعيدة اسمًا مختلفًا تمامًا عما أطلقوا عليه في المزارع الأخرى، وقد لاحظت أيضًا أن اسمه يتغير من موسم إلى آخر في كل مكان. يمكن أن نقول إن الأسماء تنهال عليه من دون أن تستطيع أن تلتصق به. على أية حالٍ، بالنسبة إليه، الأمر سيان، فمهما كان الاسم الذي أطلقته عليه، إذا ناديته يعتقد أنك تنادي معزة، أو قل "جبن" أو "شلال"، سيجيب من فوره "ها أنا ذا".

تقدم اثنان من الفرسان، سانسونيتو ودودوني وهما يجران جوردولو كأنه جوال. وضعاه بعنف وهما يدفعانه عند قدمي شارلمان: ارفع رأسك أيها الحيوان! ألا ترى أنك في حضرة الملك!

تلألأ وجه جوردولو، كان وجهه عريضًا، لفحه الشمس، تختلط فيه الملامح الفرنسية بتلك العربية؛ كان وجهه مليئًا بالبقع الحمراء فوق جلد

بلون الزيتون؛ له عينان سماويتان حمراوان كالدم فوق أنف أفطس، وفم ذو شفتين مكتنزتين، كان شعره أشقر ومجعدًا وذقنه خشنة مليئة بالبقع، ووسط ذلك الشعر تعلقت قشور الكستناء وإبر الشوفان. بدأ ينحني إجلالاً ويتحدث بطلاقة، دُهش أولئك النبلاء الذين حتى ذلك الحين استمعوا إليه فقط وهو يصدر أصوات الحيوانات. كان يتحدث بسرعة، ويأكل الكلمات ويخلطها. كان يبدو أحيانًا أنه ينتقل بلا توقف من لهجة إلى أخرى، أو حتى من لغة إلى أخرى، سواء مسيحية أم عربية، وبين الكلمات التي لم تفهم وبين الأخطاء التي يرتكبها. كان حديثه ـ تقريبًا ـ هو التالي: إنني أدس أنفي في التراب انحناءً، وأركع عند قدميك، وأعلن نفسي خادمًا مطيعًا لجلالة عظمتك، مرني وأنا أطيعك! ـ وأخرج ملعقة كانت معلقة في منطقته ـ وعندما تقول جلالتك: "آمر، أحكم وأريد"، وتشير إلى الصولجان، هكذا كما أفعل أنا، أترى؟، وتصرخ كما أصرخ أنا "آمر وأحكم وأريد!!" فإنكم جميعًا في هذه الحالة أيها الرعايا الكلاب يجب أن تطيعوني، وإن لم تفعلوا سأشنقكم جميعًا، وأنت في مقدمتهم أيها الملتحي ذو الوجه العجوز المتصابي!

سأل أورلاندو وهو يشهر سيفه: هل يجب أن أقطع رأسه يا مولاي؟

قال البستاني: أسألك أن تعفو عنه يا مولاي، إنها إحدى حالات التقمص المعتادة، ففي أثناء حديثه مع جلالة الملك اضطرب ..... ولم يعد يتذكر إذا كان هو الملك أم أن الملك هو ذلك الذي يتحدث معه.

ومن القدور بدأت روائح الطعام تتصاعد.

قال شارلمان بعطف: أعطوه طبقًا من الحساء.

وانسحب جوردولو أسفل شجرة ليأكل وهو يقوم بإيماءات وانحناءات، ويقوم بحوارات غير مفهومة.

ـ ولكن ماذا يفعل الآن؟

كان يضع رأسه بداخل الطبق الموضوع على الأرض كأنه يرغب في أن يضع نفسه بداخله. ذهب البستاني الطيب ليهزه من كتفه وهو يقول: متى ستفهم يا مارتينزول، إنك أنت الذي يجب أن يأكل الحساء، وليس الحساء هو الذي يجب أن يأكلك! ألا تتذكر؟ يجب أن ترفعه إلى فمك بالملعقة...

بدأ جوردولو يلقي في فمه بملاعق الحساء بنهم. كان يدفع بالملعقة بسرعة شديدة حتى إنه أحيانًا كان يخطئ الهدف. كانت هناك فجوة في الشجرة التي يجلس أسفلها، على نفس ارتفاع رأسه. أخذ جوردولو يقذف بملاعق الحساء في فجوة الجذع: إن هذا ليس فمك، إنه جذع الشجرة.

كان أجيلولفو قد تابع منذ البداية باهتمام مختلط ومضطرب حركات ذلك الجسم المشحم، الذي يدور وسط الأشياء الموجودة فرحًا كأنه حيوان لم يروَّض يرغب في أن يحك ظهره، وكان يشعر بنوع من الدوار.

قال شارلمان: أيها الفارس أجيلولفو! أتعرف بماذا أفكر؟ إنني عينت هذا الرجل حاملاً لترسك! ما رأيك؟ أليست هذه فكرة جيدة؟

أخذ الفرسان يتغامزون بسخرية. أما أجيلولفو، الذي كان يأخذ كل شيء على محمل الجد (خاصة إذا كان أمرًا إمبراطوريًا صريحًا) فقد التفت إلى حامل ترسه الجديد ليعطي له الأوامر الأولى، ولكن جوردولو، بعد أن أنهى الحساء كان قد سقط في سُبات عميق أسفل الشجرة، وكان يصدر غطيطًا عاليًا وهو مستلق تحت الشجرة، وكان صدره ومعدته وبطنه جميعها ترتفع وتنخفض كأنها منفاخ حداد. وكان الطبق الفارغ قد تدحرج ليستقر بجوار إحدى قدميه الضخمتين العاريتين.

ومن بين الحشائش خرج قنفذ، ربما منجذبًا للرائحة، واقترب من الطبق وأخذ يلعق القطرات الأخيرة من الحساء، وهكذا دفع أشواكه تجاه بطن إحدى قدميه. وكلما تحرك ليلعق المتبقي من الحساء ضغط بأشواكه أكثر وغرسها في القدم العارية، حتى فتح المتشرد عينيه، وأدار بنظره

حوله من دون أن يدرك من أين أتاه ذلك الشعور بالألم الذي أيقظه، ثم رأى قدمه العارية وهي وسط الأعشاب كأنها ثمرة تين شوكي بجوارها القنفذ.

أخذ جوردولو يقول: آه يا قدمي، أنت يا قدمي، أتحدث معك أنت! ماذا تفعلين وأنت واقفة هناك كالصخرة؟ ألا ترين أن ذلك الحيوان يغطيك بالشوك؟ أنت أيتها القدم! يا غبية! لماذا لا تبتعدين إلى هناك؟ ألا تشعرين أن ذلك يؤلمك؟ أيتها القدم الغبية! يكفي أن تفعلي القليل، يكفي أن تبتعدي قليلاً هكذا! ولكن كيف تكونين بهذا الغباء! يا قدمي! استمعي إليّ! ولكن انظروا كيف تعذب نفسها؟ هيا ابتعدي من هنا أيتها المعتوهة! كيف أقول لك؟ انتبهي جيدًا، انظري ماذا أفعل، والآن سأريك ماذا يجب أن تفعلي... وفي أثناء قوله هذا ثنى قدمه وجذبها نحوه، أبعدها عن القنفذ ـ هكذا! هل رأيت كم هذا سهل، بمجرد أن أريتك ما يجب عليك أن تفعليه فعلتِه أنت أيضًا. أيتها القدم الغبية، لماذا مكثت هناك كل هذا الوقت وتركتِه يملؤك بالأشواك؟!

وأخذ يحك الجزء المتألم، وقفز إلى أعلى، وأخذ يصفر، ثم اندفع ليجري، وألقى بنفسه بين الأشجار، أطلق ريحًا ثم آخر، ثم اختفى.

تحرك أجيلولفو كأنه يحاول اللحاق به، ولكن أين تراه ذهب؟ كان الوادي يتسع محاطًا بحقول الشوفان الكثيفة، وسياج من شجيرات الفراولة وشجيرات الحناء تجري فيها الرياح وتحمل معها الأتربة والفراشات، وتغطيه رغاوٍ من السحب البيضاء في السماء. كان جوردولو قد اختفى هناك في وسطها، وفي وسط هذا المنحدر، حيث كانت الشمس ترسم في دورانها بقعًا من الظلال والضوء، وكان يمكن أن يكون في أي موقع هنا أو هناك.

ومن مكان ما تصاعد صوت غناء مدوٍ: من فوق جسور بايون...

عقد الدرع المصفحة لأجيلولفو وهو يقف على جانب الوادي ذراعيه على صدره.

تساءل زملاؤه: إذن! متى سيبدأ حامل الترس الجديد خدمته؟

أكد أجيلولفو ـ بطريقة آلية، وبصوت خالٍ من أية نبرة: ـ أن تأكيداً شفهياً للإمبراطور له قيمة القرار الفوري.

وعاد من جديد الصوت الذي يغني "من فوق جسر بايون"، ولكن على مسافة أبعد.

IV

كان حال الأشياء في العالم ما زال مضطربًا في الفترة التي تدور فيها أحداث هذه القصة. كثيرًا ما كنا نصطدم بأسماء وأفكار وأشكال ومعاهد لا علاقة لها بأي شيء له وجود. ومن جهة أخرى، كان العالم يموج بأشياء ومناصب وأشخاص لم يكن لهم أسماء ولا شيء يميزهم عن باقي الأشياء. كانت فترة تتميز بعدم الاستخدام الكامل للإرادة والإصرار على الوجود، والرغبة في ترك أثر ما، وأن يكون الإنسان متصلًا بكل ما يحيط به، حيث إن الكثيرين لم يكونوا يستخدمونها ـ لما بهم من بؤس أو جهل، أو ربما لأن كل شيء كان ينجح على الرغم من ذلك ـ ولذلك كان قدر من هذه الإرادة يُفقد في الفراغ. ولكن ربما ما كان يمكن أن يحدث حينئذ، أن هذه الإرادة، الخفيفة جدًا، مع وعيها بذاتها، تتكاثف، في لحظة ما، ثم تتجمد، كما يحدث عندما تتكاثف أبخرة المياه وتتحول إلى سحب، وتصطدم تلك العقد التي كونتها، سواء بالمصادفة أو بطريقة فطرية، باسم ما أو بلقب عائلة ما، حيث كان هناك كثير منها خاليًا في ذلك الوقت، أو تصطدم بإحدى رتب المنظومة العسكرية، وما يتبعها من مهام يجب القيام بها وقواعد لابد من اتباعها، وبالأخص، بداخل درع حربية عسكرية، التي

بدونها، في تلك الفترة من الزمن، كان يمكن لرجل موجود بالفعل أن يختفي، فلنتخيل إذن وضع شخص لا وجود له... وهكذا بدأ أجيلولفو داي جويلديفيرني عمله، وشق طريقه نحو المجد.

وأنا التي تحكي هذه القصة، الأخت تيودورا، راهبة في نظام سان كولومبانو الرهبني. أكتب في الدير، مستوحية ما أقصه من الأوراق القديمة، وثرثرات سمعتها في قاعة الاستقبال، ومن بعض الشهادات لأناس كانوا موجودين في تلك الفترة. فنحن الراهبات لدينا فرص ضئيلة جدًا للتحدث مع الجنود، والذي لا أعرفه بالتأكيد أتخيله، وإلا كيف أكتب؟ وليس كل شيء واضحًا بالنسبة إليّ في هذه القصة، فيجب أن تلتمسوا لي العذر؛ فنحن هنا فتيات ريفيات، ولكن نبيلات، نعيش دائمًا في عزلة، في قصور بعيدة ثم في أديرة، بعيدًا عن الالتزامات الرهبانية وصلاة التسعاوية، العمل في الحقول ودرس الحنطة، الحصاد والحرائق، غزوات الجيوش والسرقات، الاعتداءات وتهذيب الخدم، زنى المحارم والهجمات الوحشية، فنحن لا نعرف شيئًا. ماذا يمكن أن تعرف راهبة مسكينة عن العالم؟ إذن فأنا أستكمل بصعوبة تلك القصة، التي أخذت أحكيها كأحد أفعال التوبة. والآن، الله وحده يعرف ماذا سأفعل لأقص عليكم المعركة، أنا التي كنت دائمًا بعيدة عن الحروب، والله شاهد عليّ، وفيما عدا تلك المصادمات الأربع أو الخمس التي حدثت في الحقول أسفل قلعتنا، والتي كنا ونحن أطفال نتابعها من بين الشرفات وسط الغلايات الضخمة للقطران المغلي (كم من القتلى الذين لم يدفنوا مكثوا ليتحللوا بعد ذلك بين الحقول وكنا نعثر على جثثهم أثناء لعبنا، في الصيف التالي، تحت سحابة من الدبابير!!)، فكما كنت أقول: فأنا لا أعرف شيئًا عن المعارك.

ورامبالدو أيضًا لم يكن يعرف شيئًا عن المعارك، على الرغم من أنه لم يكن يفكر في شيء آخر في شبابه إلا أن تلك كانت لحظة بدايته مع الأسلحة. كان ينتظر إشارة الهجوم، هناك في أحد الصفوف، ممتطيًا

حصانه، ولكنه لم يكن يشعر بأية متعة. كان لديه كثير من الأشياء فوق كتفيه، الرداء الحديدي والدرع، درع الرقبة والكتفين، والخوذة التي كان يتمكن بصعوبة من الرؤية من خلالها، وكان معه أيضًا الوشاح فوق الدرع، وترس أكثر منه ارتفاعًا، وكان معه رمح يرتطم في كل مرة برأس زملائه كلما استدار، وأسفله كان يوجد حصان لا يظهر منه شيء، بسبب الرداء الحديدي الذي كان يغطيه.

وكان قد فقد بالفعل الرغبة في الانتقام لمقتل أبيه وذلك بسفك دماء الأرجاليف إيزاوري، فلقد قالوا له وهم ينظرون في بعض الأوراق التي تحتوى على كل المعلومات: عندما ينطلق نفير البوق، اقفز إلى الصفوف الأمامية في خط مباشر ورمحك إلى الأمام حتى تغرسه في أحشائه، فإيزاورى يقاتل دائمًا في تلك المنطقة من صفوف الجيش. إذا جريت في خط مستقيم ستلقاه بالتأكيد، إلا إذا كان جيش الأعداء كله يتقدم، وهو شيء نادرًا ما يحدث في انطلاقة المعركة الأولى. وربما يكون هناك انحراف بسيط، ولكن إذا لم تخرق أنت أحشاءه بالتأكيد فسيقوم بذلك من بجوارك. بالنسبة إلى رامبالدو إذا كانت الأشياء تتم بهذه الطريقة، فلا شيء يهمه.

كانت علامة بداية المعركة هي السعال. فقد رأى من بعيد عاصفة ترابية صفراء تتقدم، وأخرى تتصاعد من الأرض، وبدأت الجيوش المسيحية أيضًا في الانطلاق. وبدأ رامبالدو في العطس، وكان كل الجيش الإمبراطوري يعطس مقيدًا في درعه، وهكذا تقدموا تجاه العاصفة الترابية لجيش الأعداء وهم يعطسون ويدقون الأرض، وكانوا قد سمعوا هم أيضًا سعال قوات الأعداء وهي تقترب. وتلاقت العاصفتان الرمليتان، وتصاعدت أصوات السعال وضربات الرماح.

كانت المهارة في المواجهة الأولى ليست تلك الخاصة بالضرب بالرمح (لأنه أمام تلك التروس كان هناك خطر كسره، أو أن تنال أنت ضربة، أثناء

الاندفاع، تلقيك أرضًا)، بل كانت المهارة تكمن في أن تقلب العدو من فوق السرج، وذلك بأن تغرس الرمح بين مقعدته والسرج في أثناء ركضه. هذا أيضًا يمكن أن ينتهي نهاية سيئة، لأن الرمح المسدد إلى أسفل يمكن بكل سهولة أن ينغرس في أي عائق، أو ربما ينغرس في الأرض ويتحول بالتالي إلى رافعة، ملقيًا بك أنت من فوق السرج كالمنجنيق. كان الصراع في الصفوف الأولى إذن عبارة عن طيران في الهواء لمحاربين تعلقوا في رماحهم، لأن التحركات الجانبية كانت صعبة نظرًا لأنه لم يكن في الإمكان الدوران ولو قليلاً بالرمح من دون غرسه في ضلع أحد الأصدقاء أو الأعداء، ومن ثم كان ينتج من ذلك تكدس شديد، يصعب بسببه فهم أي شيء. عندئذ كانت تظهر قوات المدافعين راكضين بخيولهم، مستلين سيوفهم، وكانوا يجيدون التخلص من الحشود بقوة السيف.

ويستمر هذا الوضع، حتى يجدوا أنفسهم في مواجهة قوات المدافعين التابعة للعدو، فيبدءون في المواجهة بالرمح. وتبدأ المبارزات، ولكن، لأن الأرض كانت مكدسة بالفعل ببواقي الجثث والقتلى، كانوا يتحركون بصعوبة. وحيث لم يكن بالإمكان أن يصل كل طرف إلى الآخر فقد كانوا يفرغون ما بداخلهم بالسباب. وهنا كانت درجة السباب وقوته حاسمة، لأنه حسب نوع الإهانة، مميتة كانت أو دموية، غير محتملة أو متوسطة أو خفيفة، كان الأمر يتطلب ردود فعل متباينة، وكان الأمر يصل أحيانًا إلى إهانات لا يمكن الصفح عنها، وتتوارثها الأجيال التالية. لذلك كان غاية في الأهمية أن يفهم كل طرف ما يقوله الطرف الآخر، وهو الأمر الذي لم يكن سهلاً بين الأتراك والمسيحيين، وبوجود لغات مختلفة بين محاربي الأتراك والمسيحيين، وبالتالي إذا لحق بك سباب لا يمكنك فهم معناه، ماذا يمكنك أن تفعل؟ كان عليك إذن الاحتفاظ به، وربما تبقى ملطخًا به طوال حياتك. ولذلك، ففي تلك المرحلة من القتال كان يتدخل المترجمون. كانت فرقة سريعة ترتدي دروعًا خفيفة وتمتطي خيولاً خاصة صغيرة

الحجم، وكانت تدور في المعركة حول المحاربين، كانوا يلتقطون على الفور السباب ويترجمونه إلى لغة المستمع.

ـ خارسوس!

ـ يا فضلات الدود!

ـ موشريك! سوتزو! موتزو! عبد! ابن العاهرة! زابلكان! روث!

وبالنسبة إلى أولئك المترجمين كان هناك اتفاق ضمني بين الطرفين على عدم المساس بهم، بالإضافة إلى أنهم كانوا يسيرون بسرعة شديدة، وفي تلك الفوضى لم يكن من السهل قتل محارب ثقيل يمتطي جواداً منتفخاً يسير بصعوبة لما وضعوه فوقه من دروع كثيرة، فلنتخيل إذن وضع هؤلاء الذين يقفزون بحركاتهم السريعة. ولكن كما هو معروف فالحرب هي الحرب، وكل فترة تترك ضحاياها. أما هم، ولأنهم يعرفون كيف تُقال "يا ابن العاهرة" ببضع لغات، كان لا بد أن يكون لهم نصيبهم في المخاطرة.

وفي ميدان المعركة كان خفيف وسريع اليد هو الذي يجني حصاداً جيداً، خاصة إذا وصل في الوقت المناسب، وذلك قبل أن تصل أسراب جنود المشاة الذين كانوا يستولون على كل ما تصل إليه أيديهم.

ولجمع الأشياء كان المشاة قصيرو القامة هم من لديهم أفضل الفرص، ولكن كان الفرسان، من فوق سروجهم، يضربونهم فوق رؤوسهم ضربات تخل توازنهم، في أفضل الأحوال، ويأخذون كل شيء إلى فوق. والمقصود بكلمة أشياء هنا ليست تلك الأشياء التي تُنزع من الموتى، لأن نزع الأشياء عن الموتى كان يتطلب عملاً خاصاً، لكن المقصود كل الأشياء التي تُفقد. فبوجود تلك العادة السائدة في تلك الفترة، وهي الذهاب إلى المعركة بأشياء مكدسة تزين السروج، كان كثير من تلك الأشياء غالباً ما يسقط في المصادمات الأولى. من إذن يفكر في القتال؟ إن المعركة الكبيرة هي في

جمع الأشياء التي تسقط. وفي المساء عندما يعودون إلى معسكرهم يتبادلونها ويتاجرون بها، وهكذا تدور الأشياء، ودائمًا الأشياء نفسها هي التي تعبر من معسكر إلى آخر، ومن كتيبة إلى أخرى في المعسكر نفسه، وما الحرب إذن سوى ذلك التنقل من يد إلى أخرى لأشياء تقل قيمتها بمرور الوقت؟

بالنسبة إلى رامبالدو حدث كل شيء بخلاف ما توقعه. ألقى بنفسه ورمحه إلى الأمام مرتعدًا من شغف اللقاء بين الجيشين، وتقابلا، ولكن بدا كأن كل شيء قد تم حسابه مسبقًا، لأن كل فارس كان يمر في المسافة الفاصلة بين اثنين من الأعداء من دون أن يمساه بسوء. ولمدة من الزمن أخذ الجيشان في الجري كل منهما في اتجاهه معطيًا كل منهما ظهره للآخر، ثم كان الفرسان يستديرون، يحاولون أن يتصادموا، ولكن كان التصادم المنظم قد انتهى. من يستطيع إذن أن يعثر على الأرجاليف في وسط هذا الحشد، وجد رامبالدو نفسه في مواجهة باستخدام التروس مع فارس عربي شديد النحافة مثل سمك البكالا، وكان يبدو أن لا أحد منهما لديه الرغبة في أن يفسح مجالًا للآخر، أخذا يتدافعان بالتروس في حين أن جواد كل منهما يثبت حدواته أرضًا.

تحدث العربي بوجه جامد كأنه الجبس.

صرخ رامبالدو: أيها المترجم! ماذا يقول؟

ركض إلى هناك، على الفور أحد أولئك المتباطئين قائلًا: يقول لك أفسح له الطريق.

ـ لا، لن أفعل!

نقل إليه المترجم ما قاله، فرد الآخر: يقول إنه يجب أن يتقدم إلى الأمام للخدمة، وإلا لن تسير المعركة حسب الخطة...

ـ سأفسح له الطريق إذا قال لي أين أجد إيزاورى الأرجاليف!

أشار العربي بيده تجاه هضبة صغيرة صارخًا، وقال المترجم: هناك فوق على اليسار!

التفت رامبالدو ورحل راكضًا.

كان الأرجاليف ملتفًا بعلم أخضر، ينظر إلى الأفق:

ـ أيها المترجم.

ـ أنا هنا

ـ قل له إنني ابن ماركيز روسيليوني وإنني أتيت لأنتقم لأبي. قام المترجم بعمله، ورفع الأرجاليف يده وأصابعه مطبقة: ومن يكون هذا؟

ـ من يكون أبي؟ آه، هذه هي إهانتك الأخيرة! وأشهر رامبالدو سيفه، وقلده الأرجاليف، وكان هذا الأخير يبدو مبارزًا ماهرًا.

وكان رامبالدو في موقف سيئ عندما قاطعهما لاهثًا الفارس العربي الذي لقيه في البداية، ذو الوجه الجبسي وهو يصرخ بشيء ما.

ترجم المترجم بسرعة: توقفا أيها السادة! سامحاني! لقد التبس الأمر عليّ، الأرجاليف إيزاوري هناك فوق الهضبة اليمنى، هذا هو الأرجاليف أبدول!

ـ أشكرك، إنك رجل شريف! . قال رامبالدو هذا ثم حرك جواده، محييًا بسيفه الأرجاليف أبدول، وبدأ في الركض تجاه الهضبة الأخرى.

وعند سماع أن رامبالدو هو ابن الماركيز قال الأرجاليف إيزاورى: ماذا؟ وكان لا بد لرامبالدو أن يكرر ذلك في أذنه أكثر من مرة صارخًا. وفي النهاية وافق، ورفع سيفه، ألقى رامبالدو بنفسه ضده، ولكن بينما تقاطع السيفان ساوره الشك أن هذا الذي أمامه ليس الأرجاليف، وتسبب ذلك في تخاذل هجومه قليلًا، وحاول أن يعطي كل ما لديه من حماسة للقتال، إلا أنه كلما أعطى أكثر شعر بشك في هوية العدو.

وكاد هذا الشك يتسبب في هلاكه، فلقد كان العربي يصيبه بضربات وشيكة، عندئذ احتدم بجوارهما صراع عنيف، كان أحد الضباط المسلمين منهمكًا في القتال وسط الحشد، وفجأة أطلق صيحة. عند سماع تلك الصيحة رفع خصم رامبالدو ترسه كأنه يطلب هدنة، ورد على الصيحة.

سأل رامبالدو المترجم: ماذا قال؟

ـ قال: نعم أيها الأرجاليف إيزاورى، سأحضر لك النظارات فورًا.

ـ آه، إذن ليس هو!

شرح الخصم: أنا حامل نظارات الأرجاليف إيزاورى ، والنظارات هي جهاز لا تعلمون عنه شيئًا أنتم أيها المسيحيون، فهي عدسات تصحح النظر. ونظرًا لأن الأرجاليف قصير النظر فهو مجبر على أن يضعها في أثناء المعركة، ولكن نظرًا إلى أنها مصنوعة من الزجاج، فعند كل صدام يكسر زوج منها، وأنا المسئول على أن أزوده بالنظارات الجديدة. أسألك إذن أن تتوقف عن المبارزة وإلا سيواجه الأرجاليف مصيرًا مؤلمًا لضعف نظره.

صرخ رامبالدو مزمجرًا: آه، حامل نظارات. ولم يكن يدرى ماذا يفعل؛ ينزع أحشاءه من الغضب أم يذهب ليهاجم إيزاورى الحقيقي. ولكن أين إذن الشجاعة في نزال مع شخص لا يرى؟

ـ يجب أن تتركني أذهب يا سيدي ـ أكمل حامل النظارات ـ لأن خطة المعركة تتطلب أن يظل إيزاوري بخير، ولكنه بدون النظارات يضيع!

ولوح بالنظارات صارخًا: ها هي النظارات يا أرجاليف، ستصل إليك على الفور.

قال رامبالدو: لا! وضرب ذلك الزجاج بالسيف مهشمًا إياه!

وفي تلك اللحظة نفسها، كأن صوت العدسات وهي تتفتت يعني أنه ضائع لا محالة، اندفع إيزاورى ليصيبه مباشرة أحد الرماح المسيحية في مقتل.

قال حامل النظارات: الآن لا يحتاج إلى أية عدسات ليرى حوريات الجنة، وابتعد بجواده.

ظل جسد إيزاورى معلقًا من قدميه في الركاب، وكان الجواد يجذبه بعيدًا حتى وصل عند قدمي رامبالدو.

اختلط لدى رامبالدو في تلك اللحظة كثير من المشاعر: الانفعال لرؤية إيزاورى ميتًا وملقي على الأرض، الاضطراب الذي اجتاحته عن النصر الذي حققه بأن انتقم أخيرًا لموت أبيه، بين الشك بأن ما قام به بأن قاد الأرجاليف إلى الموت بتكسير عدسات النظر وتفتيتها يُعد شيئًا من قبيل الواجب، وبين الخوف من أن يجد نفسه فجأة من دون الهدف الذي قاده حتى هذا المكان، مشاعر كلها استمرت للحظة واحدة. ثم لم يشعر إلا بتلك الخفة العجيبة، حيث وجد نفسه من دون تلك الفكرة المقلقة وسط المعركة، وبأنه يمكنه أن يجري وأن ينظر حوله وأن يحارب وكأن لديه أجنحة في قدميه.

نظرًا لأنه كان يفكر فقط في فكرة قتل الأرجاليف، لم يكن قد أعطى اهتمامًا لأي شيء يتعلق بنظام المعركة، لم يكن يفكر أن للمعركة أي نظام. كان كل شيء يبدو له جديدًا، وكان يبدو أن كل من الرهبة أو الرعب يمكنهما الآن فقط المساس به. كانت الأرض ما زالت مليئة بالموتى، وكان الذين سقطوا أرضًا بدروعهم، يرقدون في أوضاع مفككة تبعًا لما آلت إليه دروع الفخذ والذراعين، والأجزاء الحديدية الأخرى فكونت كومة، بل ربما تركت اليدين والقدمين معلقة في الهواء. في بعض الأجزاء، تكون التروس الثقيلة قد تسببت في فتحات واسعة ومنها تظهر كل الأجزاء الداخلية، كأن تلك الدروع محشوة ليس بأجساد كاملة، ولكن بمجرد أحشاء موضوعة هناك بطريقة عشوائية، تبرز إلى الخارج مع الضربة الأولى.

وكانت تلك المناظر الوحشية تملأ رامبالدو بالتأثر، هل كان قد نسي أن

الدماء الإنسانية الساخنة هي التي تتحرك وتعطي الحياة لكل تلك الأشياء؟ ربما تعطي الحياة للجميع ما عدا شخصًا واحدًا، أو ترى هل امتدت الطبيعة التي لا يمكن المساس بها للفارس ذي الدرع البيضاء إلى ميدان المعركة كله؟ ونخس حصانه. كان شغوفًا بأن يواجه وجودًا حيًا، سواء أكان ذلك الوجود لصديق أم حتى لعدو.

وصل رامبالدو إلى وادٍ صغير، مهجور، إلا من جثث الموتى والذباب الذي يطن حولها. كانت المعركة قد وصلت إلى فترة هدنة، أو ربما تكون احتدمت في ناحية أخرى تمامًا، كان رامبالدو يركض فوق جواده باحثًا حوله، وها هو يسمع خطوات حدوة حصان، ويظهر أمامه محارب على إحدى قمم الهضبة؛ كان عربيًا! نظر حوله بسرعة، ثم أطلق عنان حصانه، وهرب. نخس رمبالدو حصانه وأسرع خلفه. والآن أصبح هو أيضًا فوق المرتفع، ورأى في المرعى هناك الفارس العربي وهو يركض بحصانه ثم يختفي بين أشجار البندق. كان حصان رامبالدو مثل السهم، وكان يبدو أنه ينتظر دائمًا الفرصة ليتسابق. شعر بأن الحصان حصان حقيقي والإنسان إنسان بالفعل. انحرف العربي إلى اليمين. لماذا؟

أصبح رامبالدو واثقًا باللحاق به، إلا أن فارسًا قفز من اليمين من وراء الأشجار وقطع الطريق. ثم استدار كل منهما، وأصبحا في مواجهته؛ إذن كان ذلك فخًا!

ألقى رامبالدو بنفسه مهاجمًا، رافعًا سيفه وهو يصرخ: جبناء!

كان أحدهما في مواجهته، يرتدي خوذة سوداء ذات قرنين كأنه الدبور، صد الشاب ضربة حسام كادت تصيب درعه، ولكن الجواد انحرف فجأة، وأصبح الفارس الأول يهاجمه من قريب، والآن يجب على رامبالدو المبارزة بالرمح والسيف معًا، وبدأ يدور بالحصان حول نفسه وركبتاه متجاورتان وأخذ يصرخ: جبناء!

كان غضبه حقيقيًا، وكانت المعركة محتدمة بالفعل، وكان تركيز قواه في محاولة للانتباه للعدوين يسبب تدميرًا حقيقيًا للعظام والدماء، ربما يموت رامبالدو الآن، الآن وهو متأكد أن العالم موجود بالفعل، ولم يكن يعرف إذا كان الموت الآن أكثر حزنًا بالنسبة إليه أم أقل.

انقض الاثنان عليه، فتراجع، وكان مقبضًا بشدة على مقبض السيف كأنه معلق به، إذا فقده ضاع. وفي هذه اللحظة الحاسمة، جاء صوت ركض جواد، وعند سماع هذا الصوت ابتعد العدوان كل منهما عن الآخر كأنهما يسمعان صفير بوق. احتميا بتروسهما المرتفعة وهما يتراجعان، التفت رامبالدو أيضًا، فرأى بجواره فارسًا يرتدي الدرع المسيحية، وكان يرتدي فوق درعه وشاحًا ذا لون أزرق كلون زهرة العناقية، وكانت هناك ريشة طويلة باللون نفسه تتطاير بفعل الهواء فوق خوذته. وبحركة سريعة من رمحه فصل بين الفارسين.

والآن يقف كل منهما بجوار الآخر، رامبالدو والفارس المجهول، كان ذلك الأخير يلوح دائمًا برمحه، وتظاهر أحد العدوين بالهجوم، وحاول أن ينزع الرمح من يده، ولكنَّ الفارس ذا الوشاح الأزرق علق الرمح في دعامة ذراعه، وأمسك بالحسام في يده. وهجم على العدو وأخذا يتبارزان. وعندما رأى رامبالدو كيف يتحرك المنقذ المجهول بخفة، نسي تقريبًا كل شيء، وأخذ ينظر إليه بدهشة، ولكن فقط للحظة، ثم ألقى بنفسه هو أيضًا أمام العدو الثاني في تناطح قوي بين التروس. وهكذا أخذ يحارب بجوار الفارس ذي الوشاح الزهري، وفي كل مرة كان العدوان يتراجعان إلى الخلف بعد هجوم باء بالفشل. كان كل منهما يهاجم خصم الآخر، وبحركة التبديل السريعة تلك، كانا ينهكانهما بمهارتهما المختلفة. إن الصراع بجوار رفيق شيء أجمل كثيرًا من أن يصارع المرء بمفرده، فكل منهما يشجع الآخر ويواسيه، وينصهر الشعور بأن لديك عدوًا مع الشعور بأن لديك صديقًا في بوتقة واحدة. وكان رامبالدو ـ لكي يشجع ـ نفسه

يصيح للفارس الآخر الذي لم يكن يبادله الصياح. أدرك الشاب أنه في أثناء المعركة، من الأفضل ادخار الأنفاس، فالتزم الصمت هو الآخر، ولكنه استاء قليلاً لعدم الاستماع إلى صوت رفيقه. وبدأت المبارزة تزداد وطأة. فها هو المحارب ذو الوشاح الزهري يقلب خصمه من فوق سرجه، فيهرب الخصم جريًا وسط الأشجار، والآخر يهاجم رامبالدو ولكنه يكسر سيفه في أثناء الهجوم. وخوفًا من أن يتعرض للأسر يستدير بحصانه ويهرب هو الآخر.

قال رامبالدو لمنقذه بعد أن كشف وجهه: أشكرك يا أخي! لقد أنقذت حياتي! ومد إليه يده: اسمي رامبالدو داي ماركيزي دي روسيليوني، أكاديمي.

لم يجب الفارس ذو الوشاح الزهري، ولم يقل اسمه، ولم يمد يده ليصافح رامبالدو، ولم يكشف عن وجهه. احمر وجه الشاب: لماذا لا تجيبني؟ . إلا أن الفارس استدار بجواده وهرب بعيدًا.

صاح رامبالدو: أيها الفارس، حتى إن كنت قد أنقذت حياتى فإنني أعتبر ما حدث إهانة مميتة. إلا أن الفارس ابتعد بحصانه.

واجتاح رامبالدو الشعور بفضل منقذه المجهول مع الإحساس بالمشاركة الصامتة التي ولدت في أثناء القتال، والغضب من ذلك السلوك الفظ غير المتوقع، والفضول أمام ذلك الغموض، والوحشية التي خمدت لتوها بالنصر، كل هذه المشاعر المتضاربة جعلته بحاجة إلى أن يبحث على الفور عن أشياء أخرى. ها هو ينخس حصانه ليتبع هذا الفارس وهو يصرخ: ستدفع ثمن هذه الإهانة مهما كانت هويتك.

أخذ ينخس حصانه، ولكن الحصان لم يتحرك، جذبه من فكه، فسقط فكه إلى أسفل، أخذ يهزه من فوق الركابين، أخذ يهتز كأنه حصان خشبي، عندئذ ترجل رامبالدو، ورفع الفك الحديدي، فرأى عينًا بيضاء: لقد مات!

اخترقت إحدى ضربات سيف العدو قلبه من بين لوحين من الحديد. كان من المقرر أن يسقط أرضًا منذ برهة لولا الأغلفة الحديدية التي كانت تطوق حوافره وجانبيه، فقد سندته كأنه مزروع في ذلك المكان. وللحظة، شعر بأن الألم، الذي أصابه لفقده ذلك الجواد الأصيل الذي نفق وهو يقف على أقدامه بعد أن خدمه بإخلاص حتى هذه اللحظة، قد هزم غضبه. فألقى بذراعيه على رقبة جواده الثابت كأنه التمثال، وقَبّله فوق الفك البارد، ثم انتفض ومسح دموعه وجرى بعيداً.

ولكن أين يمكنه الذهاب؟ وجد نفسه يجري بين المدقات الوعرة، على ساحل أحد أنهار الغابة، بعيداً عن أي وجود للمعركة. كانت آثار المحارب المجهول قد اختفت. أخذ رامبالدو يتقدم من دون أن يكون له اتجاه محدد، بعد أن استسلم بالفعل إلى أنه قد هرب منه، إلا أنه كان لا يزال يفكر: "ولكنني سأعثر عليه حتى إن كان في آخر الدنيا".

كان أكثر ما يؤلمه في تلك اللحظة هو العطش. وفي أثناء نزوله باتجاه قاع مجرى النهر ليشرب، سمع صوت حركة بين الأغصان، كان هناك حصان مربوط في شجرة بندق بواسطة عقال، وكان الحصان ينزع الحشائش من المرعى بعد أن تحرر من ألواح درع ضخمة كانت ترقد بجواره.

لم يكن هناك أدنى شك: كان حصان المحارب المجهول، إذن فالفارس ليس بعيداً. ألقى رامبالدو بنفسه بين أعواد القصب بحثًا عنه.

وعندما وصل إلى مجرى النهر، أطل برأسه من بين الأوراق، كان المحارب هناك. كان رأسه ووسطه ما زالا حبيسي الدرع والخوذة لا يمكن فصلهما كأنهما القشرة، لكنه كان قد نزع غطاء الفخذين والركبتين والقدمين. أي إنه كان عاريًا من وسطه إلى أسفل. كان يجري حافي القدمين فوق صخور النهر.

لم يصدق رامبالدو عينيه، لأن ذلك العري كان لامرأة: كان لها بطن مصقول ذهبي اللون ، وردفان ورديان، وقدما فتاة، طويلتين مشدودتين. استدارت نصف الفتاة (أصبح بالتالي الجزء الآخر من الدرع شكلاً خاليًا من الإنسانية وغير معبر) حول نفسها، باحثةً عن مكان مريح، استندت بإحدى قدميها من ناحية والقدم الأخرى من الناحية الأخرى لأحد جداول المياه، ثنت ركبتيها قليلاً، وأسندت ذراعيها الحديديتين، ومدت رأسها قليلاً إلى الأمام وحركت مؤخرتها إلى الخلف، وأخذت الفتاة تتبول في هدوء. كانت امرأة ذات ردفين متناغمين، شعر ناعم، وتدفق رقيق. ووقع رامبالدو صريعًا في حبها.

نزلت الفتاة المحاربة إلى الشاطئ ثم انحنت قليلاً لتلامس المياه، ونظفت نفسها بسرعة، ارتعشت قليلاً، جرت بعيدًا وهي تقفز بخفة بقدميها العاريتين الورديتين. عندئذ أدركت وجود رامبالدو الذي يتجسس عليها خلف أعواد القصب، صرخت: خنزير، كلب!!. وأخرجت من خصرها خنجرًا وقذفته به، ولكن ليس ببراعتها في استخدام السلاح، ولكن بالغضب المتعالي لامرأة مجروحة تقذف رأس رجل بطبق أو بمقشة أو بأي شيء يقع تحت يديها.

أفلتت جبهة رامبالدو بأعجوبة من هذه الضربة. تراجع الشاب خجلًا لكنه بعد دقيقة واحدة كاد يُجن رغبة في أن يقدم نفسه لها من جديد، وأن يكشف لها بأية طريقة عن حبه. سمع خطوات الحصان، جرى تجاه المرعى، لم يكن الحصان هناك، كان قد اختفى، كانت الشمس تغرب، عندئذ فقط أدرك أن يومًا كاملًا قد انقضى.

كان يشعر بالتعب، سار على قدميه، مرتبكًا جدًا من كثرة الأشياء التي وقعت له لتجعله سعيدًا، سعيدًا جدًا إلى درجة أنه لم يفهم، أنه قد قايض القلق الذي كان يعتريه من قبل بهموم أكثر اشتعالاً ... وعاد إلى المعسكر.

ـ أتعرفون، لقد انتقمت لأبي، لقد انتصرت، إيزاورى سقط، أنا... ولكنه كان يحكي بارتباك، وبسرعة شديدة، لأن ما كان يريد أن يصل إليه كان شيئًا آخر.

ـ .... وكنت أحارب اثنين وأتى فارس لينقذني، ثم اكتشفت أنه لم يكن فارسًا بل كانت امرأة، امرأة رائعة الجمال، لم أر وجهها، ترتدي فوق الدرع وشاحًا زهري اللون...

تصاعدت ضحكات رفاق الخيمة وهم مندمجون في دهن الكدمات المنتشرة على صدورهم وأذرعتهم بالبلاسم المعطرة ـ ها، ها، ها، أنت أيها الكتكوت الصغير تضع نفسك بجوار برادامانتي! آه، فهي إذن تريدك أنت! إن من يدخل لدى برادامانتي هم الجنرالات أو صبية الاسطبلات، لن تنالها ولو رأيت حلمة أذنك!

لم يستطع رامبالدو أن ينبس ببنت شفة، خرج من الخيمة، وكانت الشمس تغرب، وكان لونها أحمر. كان بالأمس عند رؤيته لغروب الشمس قد تساءل: "كيف ستكون حالي يا ترى عند غروب شمس الغد؟ هل سأكون قد نجحت في الاختبار؟ هل سأكون قد تأكدت بأنني رجل بحق؟ وبأنني سأترك آثاري عندما أطأ بقدمي الأرض؟"

ها هو يقف أمام غروب ذلك "الغد". لم تعد للتجارب الأولى التي تجاوزها بالفعل أية أهمية، بل أصبح أمام تجربة جديدة صعبة وغير متوقعة، والتأكيد الوحيد لوجوده يكمن فيها. وبتلك الحالة من عدم الثقة شعر رامبالدو بالرغبة في التحدث مع الفارس ذي الدرع البيضاء، كأنه الوحيد الذي يمكنه أن يفهمه، ولم يكن هو نفسه يعلم لماذا.

- V -

أسفل قلايتى يوجد مطبخ الدير. وبينما أكتب أسمع احتكاك الأطباق النحاسية والخزفية؛ حيث الراهبات المكلفات بخدمة المطبخ يشطفن أدوات المائدة الخاصة بسفرتنا المتواضعة. بالنسبة لي فقد كلفتني الأم الرئيسة بمهمة مختلفة عن مهمتهن، هي أن أكتب هذه القصة، ولكن كل أتعاب الدير، مهما كانت مكثفة، تهدف كلها إلى شيء واحد؛ خلاص النفس، ولذلك تبدو كأنها شيئًا واحدًا. كنت بالأمس أكتب عن المعركة، وكان يبدو لي أنني أسمع احتكاكات المجلي، قرع السهام ضد الرماح والتروس، كنت أسمع رنين الخوذات التي تصيبها السيوف الثقيلة؛ كانت تصل إليّ من الممر طرقات الغزل التي تقوم بها الراهبات المكلفات بالخياطة، وكانت تبدو لي كأنها أصوات حدوات الخيول وهي تركض؛ وهكذا كان ذلك الذي تسمعه أذناي وتحوله عيناي المغلقتان إلى رؤى، وشفتاي إلى كلمات، تنطلق الريشة على الورق الأبيض لتنقلها في محاولة اللحاق بها.

أما اليوم، فيبدو أن الهواء أكثر سخونة، ورائحة الكرنب أكثر كثافة، وذهني أكثر كسلًا. ومن أصوات ضجيج الراهبات في المطبخ لا أستطيع أن

أنقل نفسي أبعد من مطابخ جيش الفرنجة؛ فأنا أرى المحاربين يقفون في صف أمام قِدر الحساء الذي يتصاعد منها الدخان، في حركة مستمرة من الرقع بأطباق الطعام وطرقات الملاعق، واصطدام المغارف بحواف الأطباق، وضجيج الحك في قاع القدر الفارغة والمغطاة بطبقة صلبة، وهذا المنظر ورائحة الكرنب تلك يتكرران في كل الكتائب، كتيبة النورمان، والأنجو، والبورغونيين.

إذا كانت قوة جيش ما تُحسب بالضوضاء العالية التي يتسبب فيها، فإن جيش الفرنجة يعلن عن نفسه بالفعل في ساعة الغداء.

كانت الضوضاء تدوي في الأودية والسهول، حتى تصل إلى المكان الذي فيه تختلط مع صدى مشابه تصدره قدور معسكر الأعداء. الأعداء أيضًا منهمكون، في الميعاد نفسه، في ابتلاع حساء الكرنب الشهير. لم تكن المعركة بالأمس تسبب كل هذه الضوضاء، ولا تتصاعد منها مثل هذه الرائحة الكريهة.

إذن لم يعد يبقى لي سوى أن أتخيل أبطال قصتي وهم ملتفون حول المطابخ. أرى أجيلولفو يظهر هناك بين الدخان، واقفًا فوق قدر حساء، لا يشعر بأي شيء تجاه رائحة الكرنب، موجهًا التهديدات إلى طباخي كتيبة الفيرنيا، وها هو الشاب رامبالدو يظهر وهو يجري.

قال وهو ما زال يلهث: أيها الفارس، أخيرًا وجدتك! الأمر هو أنني أريد أن أصبح فارسًا! في معركة الأمس انتقمت وأنا وسط الحشد... وعندئذ... وجدت نفسي وحدي، وهناك اثنان ضدي، كان كمينًا، عندئذ... على كل حال الآن أعرف معنى القتال. أريد أن يُمنح لي فى المعركة أكثر المواقع خطورة... أو أن أنطلق مع أية حملة وأحصل فيها على المجد... من أجل إيماننا المقدس... أنقذ السيدات العجائز، والمسنين الضعفاء... يمكنك أنت أن تخبرني.

ظل أجيلولفو لوهلة لا يريد مواجهته، ثم استدار نحوه كأنه يحاول أن يبدي استياءه لأنه قاطعه في أثناء تأدية مهمته؛ ثم بمجرد أن استدار بدأ أجيلولفو حديثًا مسهبًا ومنتقيًا، كان يُظهر فيه متعة شعوره بالتحكم الفوري في موضوع عُرض عليه للتو، وأن يتعمق في الموضوع ببراعة.

- مما قلته أيها الأكاديمي، يبدو لي أنك تعتقد أن موقفنا كفرسان يرتبط بالضرورة بأن نتغطى بالمجد، سواء في المعركة على رأس الفرق، أو في عمليات فردية جسور، وتلك الأخيرة المقصود بها الدفاع عن إيماننا المقدس أو إنقاذ النساء والمسنين والبؤساء. هل فهمت جيدًا؟

- نعم.

- حسنًا! فى الواقع أن تلك التي اخترتها جميعها أنشطة مخصصة للقوات المختارة من الضباط، ولكن... (وهنا سمع رامبالدو صوت ضحكة أصدرها أجيلولفو، وهي الأولى التي يسمعها من داخل الدرع البيضاء، وكانت ضحكة لطيفة وساخرة فى الوقت نفسه)... ولكن هذه ليست فقط الأعمال المهمة. إذا أردت، سيكون من السهل بالنسبة إلىّ أن أسرد لك المهام التي تُعهد إلى الفرسان البسطاء، وفرسان الدرجة الأولى، وفرسان أركان حرب، واحدة تلو الأخرى...

قاطعه رامبالدو قائلًا يكفيني أن أتبعك وأن أتخذك نموذجًا أيها الفارس.

- إذن أنت تفضل أن تضع الخبرة قبل المعرفة النظرية؛ هذا مسموح. حسنً أنت ترى أنني اليوم أقوم بالخدمة، مثل كل يوم أربعاء، وهي التفتيش على مرافق الجيش. وأنا من هذا المنطلق أقوم بمراقبة مطابخ كتائب الفيرنيا وبواتو. إذا تبعتني يمكنك أن تتدرب على هذا الفرع الدقيق من الخدمة.

لم يكن هذا ما يتوقعه رامبالدو، وشعر قليلًا بالاستياء. ولكن لأنه لم يرغب في تكذيب نفسه، تظاهر بأنه منتبه لما يفعله ويقوله أجيلولفو لرئيس الطباخين، ومسئول المخازن ومساعدي الطهاة، وهو ما زال يأمل أن تكون تلك هي مرحلة تمهيدية تقليدية قبل أن يلقي بنفسه في لقاء مسلح مشتعل.

أخذ أجيلولفو يحصي ويعيد إحصاء حصص الطعام وحصة الحساء، عدد الأطباق التي يجب ملؤها، ومحتوى القدر. وشرح لرامبالدو: ـ لتعلم أن الشيء الأصعب في قيادة أي جيش هو إحصاء عدد أطباق الحساء التي تحتويها القدر. لا يضبط العد في أية كتيبة. لأنه إما أن تزيد حصص لا أحد يعرف أين تنتهي، ولا أين يمكن أن تسجلها في دفاترك، وإما - إذا قللت الحصص المعطاة - تنقص، وعلى الفور تخاطر بإثارة استياء الكتيبة. يوجد بالفعل في كل مطبخ عسكري صف من المتشردين والفقراء المسنين ومن المعاقين الذين يأتون ليجمعوا الفائض. ولكن، مفهوم بالطبع، أن هذا في ذاته فوضى كبيرة. ولنبدأ في التعامل مع الموقف بطريقة أوضح، أمرت بأن تقدم كل كتيبة مع قائمة المستفيدين من الطعام أيضًا أسماء الفقراء الذين عادة يأتون ليقفوا صفًا في انتظار الفائض. وهكذا، نعرف بالضبط أين تنتهي كل أطباق الحساء. والآن يمكنك أن تتمرن لتمارس واجبات الفرسان، وذلك بالذهاب لتدور في مطابخ الكتائب ومعك تلك القوائم بين يديك، وأن تتأكد أن كل شيء منظم، ثم تعود إليّ لتخبرني.

ماذا كان يجب على رامبالدو أن يفعل؟ يرفض، يطالب لنفسه بالمجد فقط وإلا فلا؟ ربما هكذا يخاطر بأن يدمر مستقبله لأجل شيء تافه، فذهب. عاد شاعرًا بالضجر، دون أية أفكار واضحة. وقال لأجيلولفو: يبدو لي أن كل شيء علي ما يُرام، ولكن بالتأكيد تسوده الفوضى، ثم يبدو أن أولئك الفقراء الذين يأتون طلبًا للحساء جميعهم إخوة؟

ـ إخوة لماذا؟!

ـ لأنهم متشابهون... بل يبدو أنهم متشابهون جداً إلى حد أنه لا يمكنك التمييز بينهم. في كل كتيبة يوجد أحدهم، يشبه تماماً الآخرين. في البداية كنت أعتقد أنهم جميعاً الشخص نفسه، وانه ينتقل من مطبخ إلى آخر، ولكن عندما نظرت في القوائم وجدت أسماء مختلفة: بوامولوز، كاروتون، بالينجاتشو، بيرتللا... عندئذ سألت الملازمين وراجعت الأسماء، كانت دائماً مضبوطة. من المؤكد إذن أن ذلك التشابه...

ـ سأذهب لأرى بنفسي.

واتجها معاً تجاه المعسكر اللوريني، وأشار رامبالدو عند مكان محدد كأنه يشير تجاه واحد قائلاً: ها هو، إنه ذلك الرجل هناك، وكان هناك واحد بالفعل. ولكن عند أول نظرة، ونظراً لأنه كان يرتدى أثمالاً خضراء وصفراء اللون باهتة وممزقة، ولأن وجهه كان مليئاً بالنمش ولحيته غير متساوية، كان النظر يتخطاه سريعاً خالطاً بينه وبين لون الأرض والأوراق.

ـ ولكنه جوردولو!

ـ جوردولو! اسم آخر! هل تعرفه؟

ـ إنه شخص بلا اسم وله كل الأسماء الممكنة. أشكرك أيها الأكاديمي؛ إنك لم تكتشف فقط ثغرة في خدمتنا، ولكن أيضاً ساعدتني على العثور على حامل ترسي، الذي مُنح لي بأمر إمبراطوري ولكنني فقدته بسرعة.

وكان طباخو المعسكر اللوريني بعد انتهاء توزيع حصص الجيش، قد تركوا القدر كلها لجوردولو. خذ هذا الحساء، كله لك!

قال لجوردولو: كل هذا حساء! أخذ صوته يدوي بداخل القدر، التي في حركته بداخلها انقلب فوقها.

والآن أصبح جوردولو سجين القدر التي قلبت فوق رأسه. وسمع وهو يدق بالملعقة كأنه يدق في جرس أجوف ويزمجر: كلها حساء! ثم تحركت القدر كأنها قبعة وقلبت وظهر أسفلها جوردولو.

كان يغطيه حساء الكرنب من رأسه إلى قدميه، ملطخًا، مبتًلا، وأكثر من ذلك تكسوه بقع سوداء. وكان يبدو كالأعمى بسبب الحساء الذى يتساقط على عينيه وأخذ يجري صارخًا: كل شيء كالحساء! ويداه ممدودتان إلى الأمام وكأنه يسبح، ولم يكن يرى شيئاً سوى الحساء الذى يغطى عينيه ووجهه: كل شيء كالحساء! وبإحدى يديه كان يحرك الملعقة كأنه أراد أن يغترف لنفسه من كل شيء حوله: كل شيء كالحساء!

أمام هذا المنظر شعر رامبالدو باضطراب أدار رأسه؛ ولكنه لم يكن الشعور بالاشمئزاز لكنه الشك. إن ذلك الرجل الذى يدور هناك كالأعمى كان على حق، فالعالم ليس سوى حساء كبير بلا شكل، فيه كل شيء يتشوه، ويحول كل شيء إلى شيء آخر. وكاد يصرخ "لا أريد أن أتحول إلى حساء: النجدة!" ولكنه رأى بجواره أجيلولفو، كان يقف هناك لا يشعر بشيء عاقدًا ذراعيه، كأنه ثابت ولا شيء يمسه من قسوة المشهد، وشعر أنه لن يفهم قط ما يشغله. وكان الاضطراب العكسي الذى كان تثيره بداخله دائمًا رؤية المحارب ذي الدرع البيضاء توازن الآن بالاضطراب الجديد الذى سببه له جوردولو؛ وبهذه الطريقة استطاع أن يستعيد اتزانه وأن يعود إليه هدوؤه مرة أخرى.

قال لأجيلولفو، محاوًلا أن يصبغ صوته ببصمة ثابتة:

ـ ولماذا لا تشرح له أن كل شيء ليس حساء وتجعله ينهى هذا الصخب؟

أجابه أجيلولفو: الطريقة الوحيدة التي يفهمها هي أن تعطيه واجبًا محددًا، ثم قال لجوردولو: أنت حامل ترسي، بناء على أمر من شارلمان ملك الفرنجة والإمبراطور المقدس. الآن يجب عليك طاعتي فى كل شيء؛ ولأنني مكلف بأداء والإشراف على المهام الرحيمة لدفن ولإراحة أجساد الموتى في معركة الأمس، سأزودك بمجرفة ومعول وسنذهب إلى هناك، إلى أرض المعركة لندفن الأجساد التي نالت سر المعمودية لإخواننا الذين

مجدهم الله. ودعا أيضًا رامبالدو ليتبعه، حتى يدرك معنى مهمة دقيقة أخرى يكلف إياها الفرسان.

سار ثلاثتهم تجاه ميدان المعركة؛ أجيلولفو بتلك الخطوة التى كان يجب أن تكون لينة إلا أنه كان كمن يسير فوق الأشواك؛ رامبالدو عيناه تبرزان إلى الخارج مدققًا حوله، يتلهف لمعرفة الأماكن التى اجتازها بالأمس تحت وابل السهام والرماح؛ وجوردولو يحمل على كتفيه المجرفة والفأس، لا يفهم أى شيء عن أهمية عمله، يصفر ويغنى. ومن فوق الهضبة التى يعبرون فوقها يمكن اكتشاف السهل الذي دارت فيه أقسى المعارك. فالأرض تغطيها الأجساد. والنسور ثابتة بمخالبها المغروسة فوق أكتاف الموتى أو وجوههم، تحني منقارها تفتش داخل الأحشاء الممزقة.

وعمل النسور هذا لا يبدأ على الفور بهذه الطريقة، فهي تحط بمجرد أن تقترب المعركة من النهاية؛ ولكن عادة ما يكون الميدان مليئًا بالموتى، جميعهم تغطيهم دروعهم الصلبة التى تدقها مناقير الطيور الجارحة ولا تستطيع حتى أن تخدشها. وبمجرد أن يحل الظلام يتسلل من يعرى الجثث من معسكرات الأعداء بهدوء. وتنتظر النسور التي صعدت لتحوم حولها في السماء أن تبدأ عملها. ويضيء نور الفجر ميدان المعركة الذي تملؤه الجثث العارية. تحط النسور من جديد على الأجساد وتبدأ في تناول طعامها. ولكن يجب أن تسرع، لأنه بعد قليل سيصل حفارو القبور الذين يحرمون الطيور ذلك الذي يمنحونه للدود.

وبضربات السيف من أجيلولفو ورامبالدو، وضربات الفأس من جوردولو، طردوا الزوار السود فطارت بعيداً.

ثم بدءوا في المهمة التعسة: كل واحد من الثلاثة يختار أحد الموتى، ويمسكه من قدميه ويجره هناك فوق الهضبة إلى مكان مناسب ليحفر له قبره.

جر أجيلولفو جثة أحد الموتى وهو يفكر: "آه أيها الميت، أنت تملك ما لم يكن لي قط ولن يكون لي؛ ذلك الهيكل. فليكن، لم يعد لك، فأنت الآن لست سوى هذا الجسد، أي ذلك الذي - أحيانًا في لحظات الحنين - أفاجأ بأنني أحقد بسببه على البشر الموجودين. شيء جميل! أستطيع أن أقول أيضًا إنه شيء مميز، أنا الذي أستطيع أن أعيش بدونه، وأفعل كل شيء. كل شيء - مفهوم طبعًا ـ ما يبدو لي أكثر أهمية، بل إن هناك أشياء كثيرة أستطيع أن أؤديها أفضل ممن لهم وجود، دون عيوبهم المعتادة من فظاظة، ومحاولة تقريب، وعدم دقة. بالإضافة إلى الرائحة الكريهة. حقيقي أن من له وجودًا يضع أيضًا شيئًا ما، يترك أثرًا خاصًا، وهو الشيء الذي لن أنجح أبدًا في أن أفعله. ولكن إذا كان سرهم يكمن فى ذلك الجوال المليء بالأحشاء، فأنا شاكر، وسأستغنى عنه. إن هذا الوادي المليء بالجثث العارية التي تتحلل لم يعد يسبب لي أي اشمئزاز تجاه جسد الجنس البشرى الحي".

وأخذ جوردولو يجر ميتًا ويفكر: "إنك تصدر روائح كريهة أكثر من تلك التي لي، أيها الميت. لا أدري لماذا يحزنون عليك. ماذا ينقصك؟ في البداية كنت تتحرك، والآن ستنتقل حركتك إلى الدود الذي ستغذيه. كانت تنمو لك أظفار وينمو لك شعر؛ والآن ستجري في مجاري المياه وتعمل على نمو أعشاب المرعى تحت الشمس. ستضبح عشبًا، ثم لبنًا من الأبقار التي تأكل العشب، ثم دم طفل يشرب اللبن، وهكذا. هل ترى كم أنت ماهر ومفيد للحياة أكثر مني، أيها الجسد؟".

وسحب رامبالدو جثة ميت وأخذ يفكر: "أيها الميت، أنا أجري لاهثًا لأصل إلى هنا مثلك، لأجر من كعبي. ما هذا الغضب الذي يدفعني، هذا الجنون للمعارك والحب، الآن بالنظر إليها من وضعك الذي تنظر منه وعيناك مغمضتان ورأسك مقلوب يتخبط في الأحجار؟ إنني أفكر في ذلك، أيها الميت، أنت تجعلني أفكر؛ ولكن ما الذي يمكنه أن يتغير؟! لا

شيء. لا توجد سوى أيام أخرى، سوى تلك الأيام لنعيشها قبل القبر، لنا نحن الأحياء ولكم أنتم الموتى. وقد نويت ألا أضيعها هدرًا، وألا أضيع أي شيء أنا عليه وأى شيء يمكنني أن أكونه. أن أنجز أعمالاً عظيمة للجيش الفرنسي، وأن أحتضن وأمكث في حضن برادامانتي المغرورة. أتمنى ألا تكون أنت قضيت أيامك بطريقة جيدة، أيها الميت. على كل حال، أصابت السهام هدفها بالنسبة إليك، أما بالنسبة إليَّ فما زالت تتجول فى اتجاهات أخرى. وأنا أيها الميت، أحب قلقي أكثر من سلامك هذا".

أخذ جوردولو يصفر وهو يحفر قبرًا للميت، فرده على الأرض ليأخذ مقاسه، أخذ يضع علامات بالفأس للمقاييس، ثم نقله، وأخذ يحفر بحماسة شديدة. أيها الميت ربما تشعر بالملل وأنت راقد هناك تنتظر. ثم قلبه على أحد جانبيه تجاه الحفرة، بحيث يكون ذلك الذي يحفر تحت نظره. أيها الميت، يمكنك أن تقوم أنت ببعض ضربات بالفأس. أقامه وحاول أن يضع له الفأس في يده، فسقط الميت. كفى، إنك غير كفء، هذا يعني أنني سأقوم بمهمة الحفر وحدي، ثم تملأ أنت الحفرة. انتهى من الحفر؛ ولكن بطريقة حفر جوردولو كانت النتيجة شكلًا غير متساوٍ، قاعه على شكل قمع. والآن يريد جوردولو تجربتها. نزل إلى أسفل وتمدد. آه، يا له من مكان مريح، كم يرتاح المرء هنا بأسفل! آه، يا لها من أرض ناعمة! كم هو جميل التقلب فيها! أيها الميت! تعال إلى تحت لترى الحفرة الجميلة التي حفرتها لك! ثم عاد ليفكر مرة أخرى. ولكن لقد اتفقنا على أنك الذي ستملأ الحفرة، من الأفضل أن أمكث أنا في أسفل وأنت تلقي التراب علي بالمجرفة! ثم انتظر قليًلا. هيا! أسرع قليًلا! ماذا حدث لك؟ هكذا!. وبدأ، وهو راقد هناك بأسفل، يرفع الفأس ويهيل التراب. والآن سقطت فوقه كل كومة التراب. سمع أجيلولفو ورامبالدو صوت صرخة مخنوقة، لم يفهما إذا كانت صرخة فزع أم صرخة رضا برؤيته مدفونًا هكذا بطريقة جيدة. واستطاعا إخراج جوردولو من الحفرة في الوقت المناسب قبل أن يموت مخنوقًا.

وجد الفارس أن ما قام به جوردولو مؤدى بطريقة سيئة ولم يرضه أيضًا عمل رامبالدو، أما هو فقد خط مقبرة صغيرة واضعًا علامات حولها لتصبح مقبرة مستطيلة، متوازية من الجهتين عند وادٍ صغير.

عند العودة في المساء، مروا بُفرجة في الغابة حيث يتزود نجارو الجيش الفرنسي بالجذوع لعمل آلات الحرب والخشب ليشعلوا النيران.

ـ الآن يا جوردولو، اجمع الأخشاب.

ولكن جوردولو أخذ يضرب بالفأس ضربات عشوائية، وأخذ يجمع حزمًا من الأغصان لتحرق ومعها خشب أخضر وشجيرات كزبرة البئر، وأجزاء من شجر العزاوة وقطعًا من لحاء الأشجار المليئة بالطحالب.

أخذ الفارس يفتش عن أعمال صناعة الفئوس التي يقوم بها النجارون، وعن الأسلحة والحطب، وأخذ يشرح لرامبالدو وظائف الفارس في الإشرافِ على أعمال النجارة. لم يكن رامبالدو يستمع إليه؛ كان هناك سؤال يحرقه في حنجرته طول ذلك الوقت، والآن وقد كادت الرحلة مع أجيلولفو تنتهي؛ ولم يكن هو قد طرح السؤال قاطعه قائلًا: أيها الفارس أجيلولفو!

قال أجيلولفو وهو يمسك في يده بعض الفئوس: ماذا تريد؟

لم يكن الشاب يعرف من أين يبدأ، ولم يكن يعرف كيف يختلق الأعذار للوصول إلى الموضوع الوحيد الذي كان يقلقه؛ وهكذا وقد احمر وجهه قال: هل تعرف برادامانتي؟!

عند سماع هذا الاسم، قفز جوردولو الذى كان يقترب وهو يضم إلى صدره تلك الحزمة غير المتناسقة من الأخشاب، وطارت في الهواء الأخشاب الصغيرة والأغصان المورقة بالأوراق، وحزمة عرعر، وغصن جنبة الرباط.

وكان أجيلولفو ممسكًا بيديه ببلطة صغيرة ذات حدين حادة جدًا. رفعها وجرى وقذف بها في جذع إحدى أشجار البلوط. اخترقت البلطة الشجرة من جهة إلى أخرى قاطعة إياها إلى قطع دقيقة، ولكن الجذع لم يتحرك من الجذر، لما كانت عليه الضربة من دقة.

قال رامبالدو متعجبًا من الفرع الذي أصابه: ماذا حدث أيها الفارس أجيلولفو، ماذا أصابك؟!

كان أجيلولفو الآن عاقدًا ذراعيه متفحصًا الجذع وهو يدور حوله، قال للشاب: انظر؟ ضربة نقية، دون أية ذبذبة، انظر إلى استقامة القطع.

- VI -

تبدو هذه القصة التي شرعت في كتابتها أكثر صعوبة مما تخيلت. ها أنا أجد نفسي وعليّ أن أكتب عن أعظم جنون لدى البشر الفانيون، وهو جنون الحب، الذى منعني عنه حتى الآن نذوري، حياتي الطبعي وحياة العزلة.

لا أقول إنني لم أسمع عنه قط، بالعكس، في الدير، ولنحافظ على أنفسنا من التجارب، أحيانًا نتطرق إلى الحديث عن تلك المشاعر، هكذا كما يمكن أن نفعل ذلك نحن بتلك الأفكار المبهمة التي لدينا عنها، وهذا يحدث عادة في كل مرة تجد إحدى الراهبات البائسات نفسها حبلى رغمًا عنها بسبب عدم الخبرة، أو ربما يختطفها أحد القادرين الذين لا يخافون الله وتعود لتقص لنا ماذا فعلوا بها. إذن فعن الحب أيضًا، مثل الحرب، سأقول على سجيتي ما يمكنني أن أتخيله: إن فن كتابة القصص يكمن في معرفة استنباط كل شيء من اللاشيء الذي فهمه المرء عن الحياة؛ ولكن بمجرد أن تُملأ الصفحة ونستعيد حياتنا مرة أخرى، ندرك أن كل ما كنا نعرفه هو، بالفعل، لا شيء.

هل كانت برادامانتي تعرف أكثر؟ بعد كل الحياة التى عاشتها بوصفها محاربة شجاعة، عرف عدم الرضا العميق طريقه إلى روحها. كانت قد سلكت حياة الفروسية بدافع الحب الذي كانت تكنه لكل ما هو قاسٍ ودقيق، فظ ومتناسق مع أي قاعدة أخلاقية، كل ما يحمل دقة متناهية في الحركة وذلك من خلال التحكم في الأسلحة والخيول. ولكن، ماذا كان حولها في واقع الأمر؟ رجال أفظاظ يغطيهم العرق، يلقون بأنفسهم في الحرب بلا دقة وبلا اعتناء، وبمجرد أن تنتهي ساعات الخدمة كانوا دائمًا يبدعون في التصرف بغباء أو يدورون حولها بحركات خرقاء ليروا من منهم ستقرر أن تأخذه معها في خيمتها تلك الليلة، لأنه مَنْ المعروف أن الفروسية شيء عظيم، ولكن الفرسان غاية في الفظاظة، معتادون إنجاز أعمال عظيمة ولكنهم بصورة عامة يعيشون بلا أي تخطيط، ينجحون بالكاد في أن يمكثوا فى إطار القواعد المقدسة التي أقسموا أن يتبعوها. ونظرًا لأنهم لا يفكرون إلا في ذلك، فهم ينزعون عن أنفسهم تعب التفكير. فالحرب بالنسبة إليهم أحيانًا تكون مجزرة وأحيانًا أخرى نزهة، وليس هناك الكثير ليتأملوه بدقة.

وفي الواقع، لم تكن برادامانتي تختلف عنهم كثيرًا، ربما تلك الأفكار الغريبة عن القسوة والفظاظة هي أفكار وضعتها هي في رأسها لتناقض طبيعتها الحقيقية. على سبيل المثال، إذا كان هناك امرأة قذرة في كل جيش فرنسا، ستكون هي. فقد كانت خيمتها، مثلاً، أكثر خيمة مليئة بالفوضى في كل المخيم.

وبينما كان الرجال المساكين يتصرفون في ذلك، حتى في تلك الأعمال التي نعدها أعمالاً نسوية، مثل غسيل الملابس ورتقها، كنس الأرضية، ونزع ما لا يلزم من المكان، كانت هي، التي تربت تربية أميرة مدللة، تترفع عن لمس أي شيء، وإذا لم تكن هناك تلك الخادمات المسنات اللاتي يدرن دائمًا حول الكتائب ـ كن جميعهن قوادات بلا استثناء ـ لكان جناحها قد

أصبح أسوأ من بيت الكلب. على كل، فهي لا تمكث بداخله تقريبًا، فيومها يبدأ بمجرد أن تضع درعها وتصعد فوق سرج حصانها. وفي الواقع، بمجرد أن تضع أسلحتها ودرعها تصبح شخصاً آخر، شخصًا متلألئًا من قمة الخوذة إلى قدميها، ممسكة بترسها المزين بشريط بلون الأزرق الزهري ويا للمصيبة إذا وجدت واحدًا في غير محله. وفي رغبتها تلك في أن تكون أكثرهم رونقًا في ميدان المعركة أكثر من كونه مجرد شعور نسوي تافه، كانت تعبر عن تحدٍ مستمر للفرسان، ونوع من التفوق عليهم والفخر. وفي المحاربين الأصدقاء والأعداء كانت تطالب بنوع من الكمال في زيهم، وفي اهتمامهم بأسلحتهم، الذي كان بالنسبة إليها انعكاسًا لكمال الروح، وإذا حدث والتقت نموذجًا لما يبدو لها يتفق في بعض المقاييس مع ما تطالب به، عندئذ تستيقظ بداخلها المرأة ذات الشهوة القوية للحب.

وهنا أيضًا يُقال إنها تناقض تمامًا كل مثالياتها الصارمة: فلقد كانت حبيبة رقيقة وغضوبًا في آن. ولكن إذا انقاد الرجل وراءها في ذلك الطريق وترك نفسه وفقد سيطرته على نفسه، تشعر هي على الفور بأنها فقدت حبها له، وتبدأ في البحث عن مزاج أكثر حدة. ولكن ماذا كان يمكنها أن تجد؟ لم يكن أحد من المعسكر المسيحي أو معسكر الأعداء يستطيع التفوق عليها؛ فقد كانت تعرف نقاط ضعفهم جميعًا وعيوبهم.

كانت تتدرب على الرمي بالقوس، في الساحة قبالة خيمتها، عندما رأى رامبالدو الذي كان يجول باحثًا عنها بشغف وجهها لأول مرة. كانت ترتدي رداء عسكريًا قصيرًا؛ ممسكة بالقوس بذراعيها العاريتين؛ كان وجهها عابسًا قليلًا بسبب ذلك المجهود الذي تقوم به؛ وكان شعرها مربوطًا على عنقها ثم منسدلاً في ذيل كبير غير منظم. ولكن لم تتوقف نظرة رامبالدو عند أية ملحوظة دقيقة. رأى في المجمل امرأة؛ شخصها، ألوانها، ولم يكن في الإمكان أن تكون سوى تلك المرأة التي دون أن يراها، تمناها من كل قلبه، وبالفعل كانت بالنسبة له كما تخيلها. انطلق السهم من القوس

وانغرس في أحد أعمدة الهدف على الصف نفسه لثلاثة أسهم أخرى كانت قد صوبتها بالفعل، قال رامبالدو وهو يجري نحوها: أنا سأتحداك في رمي السهام!

هكذا يجرى دائمًا الشاب نحو المرأة؛ ولكن هل حقًا دفعه إلى ذلك حبه لها؟ أو كان هذا حبًا لذاته، بحثًا عن نوع من تأكيد وجوده فقط تمنحه إياه المرأة؟ يجري الشاب ويقع في الحب، غير واثق بنفسه، سعيدًا ويائسًا، وبالنسبة إليه تكون المرأة هى الشيء جلي الوجود بالتأكيد، وهي فقط تستطيع إعطاءه هذا الدليل على الوجود الحقيقي.

ولكن المرأة هي أيضًا لا تثق بوجودها؛ ها هي بدورها ترتعش أمامه غير واثقة، كيف لا يدرك الشاب هذا؟ بماذا يفيد معرفة مَنْ منهما القوي ومن الضعيف؟ إنهما متساويان. ولكن الشاب لا يفهم ذلك لأنه لا يريد أن يفهمه؛ وهو متعطش إلى المرأة التي تثبت وجودها، للمرأة الواثقة. ولكن سواء كانت هي تعرف أشياء أكثر أو أقل، كانت في كل الأحوال تعرف أشياء مختلفة؛ الآن هي تبحث عن طريقة جديدة للوجود؛ وبدءا معًا التنافس على إطلاق الأسهم. أخذت هي تنهره، ولم تحترمه، وهو لم يفهم أنها تفعل ذلك فقط كلعبة.

وحولهما تقف خيام جيش فرنسا، والأعلام التي تحركها الرياح، وأخيرًا صفوف الخيول التي تأكل العشب.

وكان الخدم يعدون غذاء الفرسان.

أما هؤلاء، ففي انتظار ساعة تناول الطعام كانوا منتشرين هناك حولهما يشاهدون برادامانتي وهي تتنافس في الرمي بالقوس مع الفتى.

ـ إنك تصيب الهدف ولكن مصادفة في كل مرة.

ـ مصادفة؟ لكنني لم أخطئ ولا سهمًا واحدًا.

ـ حتى إن كنت تصيب مائة هدف، ستكون جميعها مجرد مصادفة!

ــ ما الذي إذن لا يحدث محض المصادفة؟ من ينجح فى أن يصيبها غير ذلك؟

على حدود المعسكر كان أجيلولفو يسير ببطء؛ وعلى درعه البيضاء كان ينسدل رداء أسود اللون؛ كان يسير من هناك كمن لا يريد أن ينظر، ولكنه يعرف أنه محط أنظار، ويعتقد أن عليه التظاهر بأن لا شيء يهمه، في حين أن العكس صحيح، ولكن بطريقة أخرى مما قد يفهمها الآخرون.

ـ أيها الفارس، تعال أنت لتعرفه كيفية القيام بذلك... الآن لم يعد صوت برادامانتي يصطبغ بنبرة الاحتقار المعتادة، بل فقدت طريقتها أيضًا نبرة التعالي الخاصة بها. ثم تقدمت خطوتين تجاه أجيلولفو مقدمة القوس وبه السهم مُعدًا

اقترب أجيلولفو ببطء، أخذ القوس، أشاح بردائه إلى الوراء، وحرك ذراعيه بالقوس إلى الأمام. كانت حركاته هي تلك الحركات للعضلات والأعصاب التي تحاول أن تقترب من هدفٍ ما؛ كان هو يضع القوى في مكانها بالدقة المطلوبة وبنظام محدد. أوقف طرف السهم في الخط غير المرئي للهدف؛ حرك القوس بالقدر الكافي وليس أكثر، وسدد إلى الهدف. ولم يكن يمكن للسهم إلا أن يصيب الهدف. صاحت برادامانتي: هذا هو تصويب الهدف!.

لم يكن يهم أجيلولفو شيء من هذا، كان ما زال ممسكًا بالقوس المرتعش بين يديه الثابتتين؛ ثم تركه ليسقط، ولف حوله رداءه مغلقًا إياه بقبضته على صدر الدرع؛ وهكذا ابتعد. لم يكن لديه شيء ليقوله، ولم يكن قد قال شيئًا.

رفعت برادامانتي القوس، رفعته بذراع مشدودة وهزت ذيل شعرها على كتفيها ـ من يمكنه، من سواه يمكنه شد القوس بهذه الدقة؟ من يستطيع أن يكون دقيقًا ومطلقًا في كل حركة سواه؟

وبينما تقول ذلك كانت تركل بقدميها قطعًا من الأرض مليئة بالحشائش وتلقي بالسهام على الهدف. كان أجيلولفو قد ابتعد بالفعل ولم يلتفت، كانت الخوذة اللامعة مثنية إلى الأمام كأنها تسير منحنية، وكانت قبضتاه ممسكتين بالرداء معقودتين على صدره.

وجلس بعض الفرسان الذين كانوا قد تجمعوا هناك حولهما فوق الحشائش ليستمتع بمشهد برادامانتي وقد أطلقت العنان لجنونها.

ـ منذ أن أصابها ذلك العشق لأجيلولفو، البائسة، فقدت عقلها...

أمسك رامبالدو من كان يتحدث من ذراعه وسأله: ماذا؟ ماذا قلت؟

ـ ماذا أيها الكتكوت، لقد تمكنت بالفعل من التباهي أمام فارستنا! ولكنها الآن لا يعجبها سوى الدروع النظيفة من الداخل ومن الخارج! ألم تكن تعرف أنها تهيم عشقًا بأجيلولفو؟

ـ ولكن كيف يمكن ذلك... أجيلولفو... وبرادامانتي... كيف؟

ـ يحدث هذا عندما تنزع امرأة رغبتها في كل الرجال الموجودين وتصبح الرغبة الوحيدة الباقية لها في رجل ليس له وجود بالمرة...

وكانت الرغبة لدى رامبالدو في أن يجد الفارس ذا الدرع البيضاء عند أية لحظة إحباط أو يأس قد أصبحت تلقائية. وحتى في هذه اللحظة شعر بذلك، ولكنه لم يكن يعرف إذا كان ذلك ليسأله النصيحة أم ليواجهه بالفعل كمنافس له.

وبدأ رفاق السلاح في سؤالها: يا أيتها الشقراء، أليس ضعيفاً قليلاً في الفراش؟

ولا بد أن موقف برادامانتي كان غاية في البؤس؛ فلنتخيل إذا كانت واتتهم الشجاعة ليتحدثوا إليها بهذه النبرة في وقت آخر.

استكمل وأصر هؤلاء الوقحاء: قولي لي، عندما تنزعين عنه ثيابه ويصبح عارياً بماذا تمسكين؟ ويقهقهون.

واختلط لدى رامبالدو الألم المزدوج لسماعه هذه الكلمات عن برادامانتي، وعن الفارس، والغضب لأنه يدرك عدم وجود دور له في تلك القصة نهائيًا، ولا أحد يعتبره جزءاً من القضية، وهو الأمر الذي أصابه بمشاعر الإحباط.

الآن تسلحت برادامانتي بسوط وأخذت تلوح به في الهواء طاردة الفضوليين ورامبالدو معهم - أولا تعتقدون أنني امرأة بالقدر الكافي لأجعل أي رجل يقوم بما عليه القيام به؟ أما هؤلاء فأخذوا يجرون مبتعدين وهم يصيحون: هاها! إذا أردت أن نعيره نحن شيئًا ما يا راداما، ليس عليك إلا أن تقولي لنا ذلك!

أخذ رامبالدو، مدفوعًا بالآخرين، يتبع صف المحاربين البُله، حتى تفرقوا. ولم تعد لديه الرغبة في أن يعود إلى برادامانتي؛ وحتى صحبة أجيلولفو الآن أصبحت تضايقه. ووجد نفسه مصادفة بجوار شاب آخر يُدعى توريسموندو، أحد ورثة دوقية كورنوفوليا، كان يسير وهو ينظر إلى الأرض، متجهمًا يصفر. استكمل رامبالدو سيره مع ذلك الشاب الذي لم يكن يعرفه تقريبًا، ونظراً لأنه كانت لديه الرغبة في التعبير عما بداخله بدأ بالحديث: أنا هنا جديد، لا أدري، ليس الوضع كما اعتقدته، كل شيء غريب، لا أحد يصل إلى شيء ولا يفهم شيء.

لم يرفع توريسموندو عينيه عن الأرض، ولكنه قطع للحظة صفيره الكئيب وقال: كل شيء يثير الاشمئزاز.

أجاب رامبالدوا: بالفعل، أتعرف، أنا لست متشائمًا، بل هناك لحظات أشعر فيها أنني مليء بالحماسة، وبالإعجاب أيضًا، ويبدو لي أنني أخيرًا فهمت كل شيء، وأقول لنفسي إذا كنت بالفعل قد وجدت الزاوية الحادة لرؤية الأشياء، وإذا كانت الحرب في جيش الفرنجة كلها بهذه الطريقة، فسيكون هذا بالفعل ما تمنيته. ولكن هنا لا يمكنك أن تكون واثقًا بأي شيء...

قاطعه توريسموندو: وبماذا تريد أن تكون واثقًا؟ شعارات، رتب، زينة، أسماء... كلها عملية استعراضية. إن الدروع والعمليات الشجاعة وشعارات الفرسان ليست مصنوعة من حديد، بل جميعها ورقية، يمكنك أن تمر بها من ناحية إلى أخرى بإصبع واحدة.

كانا قد وصلا إلى مستنقع. وعلى صخور الشاطئ كانت الضفادع تنق. التفت توريسموندو نحو المعسكر وأشار إلى الشعارات المعلقة فوق الخيام كأنها إشارة يرغب بها محو كل شيء.

اعترض رامبالدو، الذي شعر بأن الإفصاح عن المرارة التي يشعر بها قد خنقها غضب الإنكار لدى الآخر، وفي محاولة لئلا يفقد معنى المقاييس، وليجد مكانًا لآلامه الخاصة قال: ولكن يجب الاعتراف أن الجيش الإمبراطوري يحارب دائمًا لقضية مقدسة، ويدافع عن المسيحية. ضد عدم الإيمان.

قال توريسموندو: لا يوجد دفاع ولا هجوم، ستستمر الحرب حتى نهاية الدهر، ولن يفوز فيها أحد ولن يُهزم أحد، سيظلون ثابتين كل منهما في مواجهة الآخر إلى الأبد، فبدون وجود البعض لن يصبح للبعض الآخر وجود، والآن سواء نحن أم هم، فقد نسينا لماذا نتصارع ... هل تصغي إلى تلك الضفادع؟ إن كل ما نفعله له معنى ونظام مثل نقيقها، وقفزها من الشاطئ إلى المياه ومن المياه إلى الشاطئ...

قال رامبالدو: الأمر بالنسبة إليّ ليس كذلك، بالنسبة إليّ على العكس، أرى أن كل شيء مرتب، منظم... أرى الفضيلة والقيمة، ولكن كل شيء غاية في البرود... إن وجود فارس بلا وجود، اعترف لك! شيء يخيفني... مع أنني معجب به، فهو كامل في كل شيء، ويمنح شعورًا بالثقة أكثر مما كان يمكنه إعطاؤه إذا كان موجودًا - واحمر وجهه - وأكاد أفهم برادامانتي... فأجيلولفو هو بالتأكيد أفضل فارس في جيشنا...

ـ ربما!

ـ كيف: ربما؟

ـ إنه هو أيضًا مجرد هيكل خارجي أسوأ من الآخرين.

ـ ماذا تقصد بقولك: هيكل خارجي؟ إن كل ما يقوم به حقيقي جدًا.

ـ لا شيء! إنها كلها قصص... إنه غير موجود، وغير موجودة تلك الأشياء التي يفعلها أو التي يقولها، لا شيء، لاشيء...

ـ وكيف إذن يمكنه، بتلك الحالة البائسة التي هو عليها مقارنة بالآخرين أن يشغل المكان الذي هو فيه الآن في الجيش؟ بفضل اسمه فقط؟

مكث توريسموندو قليلًا في صمت ثم قال، بهدوء: إن الأسماء هنا أيضًا وهمية. إذا أردت لطيرت كل شيء في الهواء، ولن يبقى شيء حتى الأرض التي عليها نضع أقدامنا.

ـ ألن ينجو أى شيء عندئذ؟

ـ ربما، ولكن ليس هنا؟

ـ من؟ أين؟

ـ فرسان الكأس المقدسة (الجرال)

ـ وأين هم؟

ـ في الغابات.

ـ هل رأيتهم؟

ـ لا.

ـ وكيف عرفت بوجودهم؟

ـ أعرف.

صمتًا. ولم يعد يسمع سوى نقيق الضفادع. وانتاب رامبالدو الخوف أن يجتاح هذا النقيق كل شيء، وأن يغرق هو أيضًا في ذلك الأخضر اللزج لنبضات تلك الخياشيم العمياء، عندئذ تذكر برادامانتي، وكيف ظهرت في المعركة، بسيفها المرفوع، ونسي كل ذلك التمزق: وكان يتوق ليحارب ولينجز أعمالاً بطولية أمام عينيها الخضراوين.

- VII -

أعطيت لكل منا هنا في الدير، أعمالٌ للتوبة، طريقة يمكن، من خلالها، أن تريح كل منا خلاصها الأبدي. وكانت كتابة القصص من نصيبي: وهو شيء قاسٍ، قاس جداً. في الخارج صيف مشمس، ومن الوادي يصل إلينا صوت أشخاص وصوت حركة المياه، قلايتي في أعلى، ومن نافذتي الصغيرة أرى جزءاً منحنياً من النهر به شباب قرويون عراة يستحمون، وأبعد من ذلك قليلاً، هناك، وراء ناصية تغطيها الأشجار، أرى فتيات نزعن ثيابهن، هن أيضاً، ونزلن للاستحمام.

أحد الشباب، وهو يعوم تحت المياه الآن، أطل في محاولة لرؤيتهن وأخذت الفتيات يشرن إليه صارخات. كان يمكن أن أكون أنا أيضاً معهم هناك، وفي صحبة جماعة جميلة، مع شباب في مثل سني، والخادمات والأقارب. ولكن دعوتنا المقدسة تتطلب أن نفضل على تلك السعادة الزائلة العالمية شيء آخر يمكث فيما بعد... يبقى... شيئاً أيضاً مثل هذا الكتاب، وكل أعمال الرحمة التي نقوم بها، والتي ننجزها بقلوب منسحقة وممتلئة بالحب ... أفضل من تلك التصرفات الحسية، مثل تلك التي في النهر، التي تنبض بالحياة والتي تدور مثل الدوائر في المياه... أبدأ في الكتابة

بحماسة ولكن منذ ساعة والريشة لا تقطر سوى ذرات حبر، ولم تعد تجري فيها نقطة حياة، فالحياة كلها بالخارج، خارج النافذة، خارج مني، يبدو أنني لن أستطيع أبدًا اللجوء إلى الصفحة التي أكتبها، وأن أفتح فيها عالمًا آخر، وأن أقفز إلى هناك. ربما كان هذا من الأفضل؛ ربما عندما كنت أكتب بفرح لم تكن معجزة ولا نعمة بل كانت خطيئة، كان نوعًا من عبادة الأوثان والتعالي.

هل أنا إذن بالخارج؟ لا، فبالكتابة لم أتغير للأفضل؛ قمت فقط باستهلاك بعض شعور القلق الشبابى الكامن في اللاوعي. ما قيمة إذن تلك الصفحات التعسة؟ الكتاب، الدعوى، النذور، أليست قيمتها أكثر منك يا نفسي. لم يقل أحد إن النفوس يمكن أن تخلص بالكتابة. اكتبي، اكتبي، فنفسك ضائعة لا محالة.

إذن، هل تريدون أن أذهب إلى الأم الرئيسة وأن أتوسل إليها أن تغير لي هذا العمل، أن ترسلني لأرفع الماء، أو لأقوم بأعمال التطريز، أو حتى لأطحن الحمص؟ لا فائدة. سأستمر في القيام بواجبي بوصفي راهبة كاتبة، على قدر استطاعتي. والآن عليّ أن أقص ما حدث في حفل عشاء الفرسان.

ضد كل القواعد الإمبراطورية الخاصة بالمراسم ذهب شارلمان ليجلس على المائدة قبل ميعاد العشاء، قبل أن يحضر المدعوون الآخرون. جلس في مقعده وأخذ يلتقط الخبز والجبن والزيتون والفلفل، تقريبًا كل ما كان فوق المائدة. ليس فقط، بل كان يأكل بيديه. غالبًا ما تتسبب السلطة المطلقة في أن يفقد المرء ما يوقفه، حتى لدى الملوك الأكثر تعقلاً ويولّد ذلك نوعًا من العشوائية.

بدأ الفرسان يصلون في مجموعات، وهم يرتدون الأزياء الاحتفالية الجميلة التي بين أقمشتها المزركشة واللحاة المدببة يظهرون خلفها دائمًا

القمصان الحديدية للدروع الزرد ذات الثقوب العريضة جداً، والدروع الخاصة بالنزهة، اللامعة مثل المرايا، التي تكفي مجرد ضربة عصا رفيعة لتسقطها أرضًا.

في البداية وصل أورلاندو الذى جلس على يمين عمه الإمبراطور، ثم رينالدوا من مونتالبانو، ثم استولفوا، ثم أنجولينو من بايونا، ثم ريكاردو من نورمانديا، والآخرون جميعًا.

وفي أقصى المائدة ذهب أجيلولفو ليجلس، وهو يرتدي دائمًا درعه الحربية الخالية من البقع. ولكن ما الذي أتى ليفعله على المائدة، هو الذي لم تكن لديه قط ولن تكون لديه شهية، ولا معدة ليملأها؛ ولا فم ليقربه من الملعقة، ولا حنجرة ليشغلها بنبيذ بورجونيا؟ إلا أنه لا يتغيب قط عن تلك المآدب التي تمتد لساعات طويلة، وهو الذي كان يمكنه استغلال تلك الساعات بطريقة أفضل كثيرًا، وذلك في عمليات متعلقة بالخدمة. ولكنه له الحق هو الآخر مثل الآخرين جميعًا في أن يكون له مكان على المائدة الإمبراطورية، وهو يشغل هذا المكان، ويشارك في طقوس المأدبة بالاهتمام الدقيق نفسه الذي يظهر في كل طقس آخر في يومه.

كانت الأطباق المُقدمة هي أطباق الجيش المعتادة: ديك محشو، وزة مشوية على السيخ، لحم بقري مسلوق، لحم خنزير باللبن، سمك الانقليس، وسمك الدنيس. ولم يكد الخدم يضعون الصواني على المائدة حتى ألقى الفرسان بأنفسهم فوقها، يمسكون بأيديهم، يفتتون الطعام، يلطخون دروعهم بالحساء، ويبعثرون الصلصة في كل مكان.

وبدأت فوضى أكثر من تلك التى تحدث في المعركة: أطباق حساء تنقلب، دجاج مشوي يطير، الخدم يبعدون الأطباق المليئة قبل أن يقوم أحد الشرهين بإفراغها في صحنه الكبير. وفي زاوية المائدة حيث يوجد أجيولفو كان كل شيء نظيفًا، وهادئًا ومنظمًا، ولكن كان هناك احتياج إلى

خدم أكثر له هو الذي لا يأكل من باقي المائدة. أول شيء - في حين يوجد في كل مكان حوله فوضى من الأطباق المتسخة، سواء بسبب تغيير طبق أو آخر لم يستطع أحد أن يغيرها، وكان كل منهم يأكل فيما يجده أمامه، حتى دون طبق. كان أجيلولفو يطلب منهم أن يضعوا أمامه مفارش جديدة وفوطًا، وأطباقًا وأطباقًا صغيرة، وصحونًا وأكوابًا من كل مقاس ونوع، شوكًا وملاعق، وملاعق صغيرة وسكاكين، وحذار إذا لم تكن موضوعة جيدًا، فهو شديد الدقة فيما يتعلق بالنظافة، إذ يكفي أن يرى ظلًا قاتمًا على إحدى الأكواب أو المفارش ليطلب تغييره. ثم إنه يأخذ من كل شيء، قليلاً، ولكنه يأخذ من كل شيء؛ ولا يترك أي طبق يفوته.

على سبيل المثال كان ينزع جزءًا من لحم الخنزير البرى المشوى، ويضعه في طبق اللحم، ثم يضع في طبق صغير الصلصة، ثم يقطع بسكين حاد جدًا اللحم إلى شرط رفيعة جدًا، ويضع تلك الشرط الواحد تلو الآخر في طبق آخر أيضًا، ثم يتبلها بالصلصة، حتى تتشربها جيدًا جدًا، ثم يضع تلك المتبلة بالصلصة في طبق جديد، ومن حين إلى آخر كان ينادي النادل فكان يأمره بأن يأخذ الطبق الأخير، ثم يطلب آخر نظيفًا. وهكذا كان يشغل نفسه لساعات. وذلك إذا لم نذكر أيضًا الدجاج، والحمام والسمان؛ يعمل بها لساعات طويلة دون أن يلمسها قط سوى بطرف بعض السكاكين الخاصة التي يطلبها لهذا الغرض، والتي يغيرها أكثر من مرة، وذلك لينزع عن آخر عظمة صغيرة أرفع وأدق الألياف من اللحم. والنبيذ أيضًا، فهو يطلب أن يصبوه له، وهو يسكبه باستمرار ويقسمه بين الكئوس والأكواب المتعددة التي أمامه، والتي بها يخلط نوع نبيذ مع آخر، ومن حين إلى آخر يشير إلى أحد النذُل ليأخذها بعيدًا ويحضر له أكوابًا نظيفة. ويستهلك كثيرًا من الخبز أيضًا، فهو يصنع كورًا صغيرة من لبابة الخبز، جميعها متساوية، ويضعها جميعها فوق فوطة السفرة في صفوف منظمة، أما قشرة الخبز فيقطعها إلى فُتات ويبني بها أهرامات صغيرةً؛ حتى يمل

ذلك ويطلب إلى الخدم أن يكنسوا المفرش بمقشات صغيرة. ثم يعاود ذلك كله من جديد.

ومع كل ما يشغله فهو لا يفقد خيطًا من الحديث الذي يتشابك عبر المائدة، ويتدخل دائمًا في الوقت المناسب.

عمّ يتحدث الفرسان وقت الغداء؟ كالعادة يتفاخرون.

يقول أورلاندو: يجب أن أقول إن معركة اسبرامونتي كانت تسير فى اتجاه سيئ قبل أن أهزم الملك أجولانتى في المبارزة وآخذ منه سيف الدورليندانا. كان متمسكًا به جدًا إلى حد أنني عندما قطعت له ذراعه اليمنى كانت قبضته ما زالت ممسكة بقوة بمقبض السيف وكان لا بد أن أستخدم الكماشات لأفصلها من يده.

وأجيلولفو: لا أقصد تكذيبك، ولكن الدقة تتطلب إن نقول إن الدورليندانا قد سلمها الأعداء في مفاوضات الهدنة بعد خمسة أيام من معركة اسبرامونتي. وهي تظهر في قائمة الأسلحة الخفيفة التي تم تسليمها للجيش الفرنسي من بين شروط الاتفاقية.

يقول رينالدو: على كل حال لا يمكن مقارنة ذلك بمعركة فوسبيرتا، فبعد أن عبرت جبال البرانس، واجهت ذلك التنين، وقطعته نصفين بضربة سيف. وكما تعرفون فجلد التنين أكثر سمكًا من الألماس.

يتدخل أجيلولفو: إذن، من الأفضل هنا أن نرتب بعض الأشياء؛ إن عبور البرانس تم في شهر أبريل، وفي أبريل، كما يعرف الجميع، تغير التنانين جلدها، ويكون طريًا وخفيفًا مثل جلد حديثي الولادة.

الفرسان: أجل، أجل في ذلك اليوم أو في يوم آخر، إذا لم يكن هناك كان سيكون في مكان آخر، على كلٍ، تمت الأشياء بهذه الطريقة، وليس من الضرورى أن نبحث عن ثغرة فى كل كلمة.

كانوا قد شعروا بالضجر، أجيلولفو هذا الذي يتذكر دائمًا كل شيء، والذي يعرف كيف يسرد الوقائع لكل حدث، حتى في حملة مشهورة، يقبلها الجميع، ويتذكرها الكل بتفاصيلها، حتى من لم يشهدها قط، ولكن لا، هو يريد أن يحول كل شيء إلى مجرد حدث عادي فى الخدمة، يدونه قائد الكتيبة في التقرير الليلي. منذ بداية العالم، يوجد فارق بين ما يحدث بالفعل في الحرب وما يتم قَصهُ، ولكن في حياة أي محارب، فإن حدوث الأشياء أو عدم حدوثها بالفعل لا أهمية له؛ فالأهم هو شخصيتك، قوتك، الاستمرارية في سلوكك بالطريقة نفسها، التي تضمن أنه حتى إن لم تكن الأشياء قد تمت بالضبط بهذه الطريقة كان يمكن أن تتم بها، وكان يمكن أن تحدث بالطريقة نفسها في مناسبات مختلفة. ولكن فارسًا مثل أجيلولفو لم يكن لديه ما يدعم أعماله سواء الحقيقية أو المزيفة، فإذا لم تكتب في محضر يومًا بعد يوم، وتدون في الدفاتر، سيصبح كل شيء فارغًا، ظلامًا دامسًا. وهو يريد أن يحول زملاءه أيضًا إلى ذلك، أولئك المتفاخرين المتباهين، بما لديهم من انتصارات تنتمي إلى الماضي دون أن يكون لها أي وجود في الحاضر، وإلى الأساطير التي بعد أن تتم نسبتها إلى واحد ثم إلى آخر ينتهي بها المطاف لتجد بطلها المناسب.

من حين إلى آخر كان بعضهم يطلب شهادة شارلمان، ولكن الإمبراطور قد خاض حروبًا كثيرة وكان يخلط بينها ولا يتذكر جيدًا ولا حتى تلك التي يحارب فيها حاليًا.

إن واجبه هو أن يصنع الحرب، والأهم أن يفكر في الحرب التالية لما يخوضه الآن؛ فالحروب التي انتهت بالفعل قد ذهبت إلى حال سبيلها. أما فيما يتعلق بما يقوله الحكاؤون والرواة فمن المعروف أنه يجب التغاضي عنه؛ ويا للشقاء إذا كان يجب على الإمبراطور الإصغاء إلى الجميع لتأكيد أقوالهم.

فقط عندما يتعلق الأمر بخلاف ما يمكن أن يكون له مضاعفات على الهيكل العسكرى، حول الرتب، أو منح الألقاب الشرفية، أو الأراضي، عندئذ كان يجب على الملك أن يقول كلمته. ولكن كلمته فى حالة النقاش العادي مجرد قول، لأنه في هذا الأمر ـ كما هو مفهوم لا أهمية كبيرة لإرادة شارلمان، فهنا يجب التمسك بالنتائج، والحكم على أساس التجارب الماضية، واحترام القوانين والأعراف. ولذلك فعندما يسألونه يهز كتفيه ويعمم الأمور وأحيانًا يتملص من الإجابة بعبارة "ولكن! مَنْ يدري! ففي زمن الحرب لا شيء ثابت!" ويستمر الحديث.

وأراد شارلمان أن يكلف ذلك الفارس أجيلولفو داي جولديفيرني الذي كان ما زال يصنع كرات من لبابة الخبز ويعترض على كل الأحداث، فحتى إن كانت تُقص بطريقة غير صحيحة، فهي تُعد الأمجاد الأصلية لجيش الفرنجة، أراد أن يكلفه بمهمة مثيرة للضجر، ولكنهم قالوا له إن أكثر الخدمات مضايقة هي بالنسبة إليه بمثابة التحدي لنشاطه وهمّته، وإن ذلك لن يفيد فى شيء.

قال أوليفييري: لا أدري لماذا تنظر إلى الأشياء هذه النظرة الضيقة يا أجيلولفو. إن إمجاد تلك البطولات تتضخم في الذاكرة الشعبية، وذلك دليل على أنها أمجاد أصلية وأساس الألقاب والرتب التي حصلنا عليها.

أجابه أجيلولفو: إلا فيما يتعلق بالمجد التي حصلت عليه أنا! إن كل لقب ورتبة حصلت عليها وجميعها من معارك مؤكدة مسجلة بوثائق لا جدل فيها.

قال صوت: مسجلة بعُرف الديك!

نهض أجيلولفو قائلًا: من تحدث يتحداني!

قال الآخرون: اهدأ قليلًا! لقد تدخلت أنت في جميع بطولات الآخرين وشككت فيها، لا تستطيع أن تمنع أحدًا من أن يتحدث عما لك من...

ـ أنا لم أوجه إهانة إلى أحد؛ إنني لا أفعل شيئًا سوى تحري الدقة في الوقائع، بالمكان والتاريخ والأدلة!

نهض محارب شاب شاحب الوجه وقال: أنا الذي تحدثت، وأنا أيضًا يمكنني التحديد وتحري الدقة.

قال أجيلولفو للشاب، الذي كان بالفعل هو توريسموندو دى كورنوفاليا: أريد أن أعرف بدقة يا توريسموندو إذا كنت ترى في ماضيّ شيئًا يمكن الاعتراض عليه. هل تريد على سبيل المثال الاعتراض على أنني حصلت على لقب فارس لأنني تمامًا منذ خمسة عشر عامًا أنقذت ابنة ملك اسكتلندا العذراء سوفرونيا من اعتداء اثنين من اللصوص؟

ـ نعم، أعترض على هذا، فمنذ خمسة عشر عامًا، لم تكن سوفرونيا ابنة ملك اسكتلندا عذراء.

وسرت همهمات في كل أنحاء المائدة. كان قانون الفروسية السائد عندئذ ينص على أن مَن أنقذ عذرية صبية تنتمي إلى عائلة نبيلة من خطر مؤكد يحصل على الفور على لقب فارس؛ ولكن من ينقذ سيدة نبيلة (ليست عذراء) من الاعتداء الجنسى يحصل فقط على لقب شرفى ومرتب مضاعف لمدة ثلاثة أشهر.

ـ كيف يمكنك أن تؤكد ذلك؟ إنها ليست إهانة فقط لكرامتي بوصفي فارسًا ولكن إهانة للسيدة التي حميتها بسيفي؟

ـ أؤكده.

ـ الأدلة؟

ـ سوفرونيا هي أمي!

تصاعدت صرخات الدهشة من صدور الفرسان، فالشاب توريسموندو لا ينتمي إذن إلى دوقية كورنوفاليا؟

ـ أجل، ولدتني سوفرونيا منذ عشرين عامًا عندما كانت لا تزال في الثالثة عشرة من عمرها. ها هي ميدالية البيت الملكي في اسكتلندا وفتش في صدره وأخرج منه خاتمًا فى سلسلة ذهبية.

عندئذ رأى شارلمان، الذي كان حتى تلك اللحظة منحني الوجه والذقن على طبق من الجمبرى، إنه ربما جاءت اللحظة التي عليه فيها أن يرفع وجهه، وقال طابعًا على صوته أقصى نبرة للسلطة الإمبراطورية: أيها الشاب الفارس، هل تدرك تمامًا خطورة كلماتك تلك؟

قال توريسموندو: تمام الإدراك! وبالنسبة لنتيجة ذلك عليّ شخصيًا أكثر من الآخرين. ساد الصمت حولهما: فلقد كان توريسموندو ينكر بنوته لدوق كورنوفاليا، الذي بفضلها حصل على لقب فارس. وكان أيضًا يعلن بذلك أنه لقيط، مع أنه ابن أميرة دمها ملكي إلا أنه يواجه الإقصاء عن الجيش.

ولكن أخطر موقف هو موقف أجيلولفو من اللعبة. فإنه قبل أن يدافع عن سوفرونيا التي هاجمها اللصوص وينقذ شرفها كان مجرد محارب بسيط بلا اسم في درع بيضاء يدور العالم بحثًا عن المغامرة. أو من الأفضل أن تقول (كما عُرف بعد ذلك) كانت درعًا بيضاء فارغةً، بلا محارب بداخلها. وكان انتصاره في الدفاع عن سوفرونيا أعطاه الحق فى أن يُلقب بفارس؛ فارس سيليمبيا شيتريورى، الذي كان في تلك اللحظة موجودًا، وهو الذي منحه هذا اللقب. فدخوله الخدمة، وكل ما حصل عليه من رتب وأسماء أضيفت إلى لقبه بعد ذلك كانت مترتبة على ذلك الحدث. إذا تم إثبات عدم عذرية سوفرونيا التى أنقذها فإن فروسيته أيضًا ستتبخر، وكل ما فعله بعد ذلك لن يكون معترفًا به وبصلاحيته، ولن يكون له أي تأثير، وكل الأسماء والألقاب التي حصل عليها ستُلغى. وهكذا ستكون ألقابه كلها بلا وجود مثله تمامًا.

وحكى توريسموندو: حملت بي أمي وهي ما زالت طفلة، وخوفًا من غضب والديها إذا عرفا بما حدث، هربت من القصر الملكي في اسكتلندا، وأخذت تعيش هائمة في السهول والمرتفعات. وأنجبتني في هدوء في إحدى المغارات، وأرضعتني وهي تهيم بين حقول إنجلترا وغاباتها حتي بلغت خمسة أعوام. تلك الذكريات الأولى هي أجمل فترة في حياتي التي حُرمتها بتدخله.

وما زلت أتذكر ذلك اليوم: تركتني أمي لأحرس كهفنا، وذهبت كالمعتاد لتسرق الفاكهة من الحقول المجاورة. لقيت لصّي طريق كانا يرغبان في التحرش بها، ربما كان الأمر سينتهي بأن يتصادقوا؛ فقد كانت أمي تشكو وحدتها كثيرًا. ولكن وصلت هذه الدرع الفارغة بحثًا عن المجد وأفزعت اللصين.

وعندما تعرّف أمي وإلى نسبها الملكي، أخذها في حمايته وقادها إلى أقرب قصر، وكان ذلك قصر كورنوفاليا، وعهد بها إلى الدوق. وكنت أنا مازلت في الكهف، وحيدًا وجائعًا. وبمجرد أن استطاعت أمي اعترفت للدوق بوجود ابنها الذي اضطرت إلى هجره. عندئذ بحث عني الخدم وهم يحملون مصابيحهم وحملوني إلى القصر. ولينقذوا شرف عائلة إسكتلندا المرتبطة بعائلة كورنوفاليا بروابط عائلية، تبنتني العائلة وعرفني الجميع على أنني ابن الدوق والدوقة. كانت حياتي مملة ومليئة بالتعليمات مثل حال المنتمين إلى العائلات النبيلة. ولم يُسمح لي بعد ذلك برؤية أمي، التي أُودعت في دير وأصبحت راهبة. وقد حملت ثقل هذا الجميل من الزيف الذي دمر مسار حياتي الطبيعي على كاهلي حتى هنا. والآن وقد استطعت أن أنطق بالحقيقة فليحدث ما يحدث، فأي شيء سيكون بالتأكيد أفضل مما تحملته حتى الآن.

وعلى المائدة كانت الحلوى قد قُدمت، "بان دي سبانيا" من طبقات متعددة رقيقة الألوان، ولكن الذهول كان قد أصاب الجميع من تلك

الاعترافات المتتابعة إلى حد أن أيًا منهم لم يمد يده إليها. قال شارلمان لأجيلولفو: وأنت، ماذا لديك لتقوله عن هذه القصة؟ ولاحظ الجميع أنه لم يقل له: أيها الفارس.

ـ كلها كذبات، كانت سوفرونيا طفلة في قمة طهارتها، وأقسم بذلك باسمي وبشرفي.

ـ هل تستطيع إثبات ذلك؟

ـ سأبحث عن سوفرونيا.

قال استولفو بخبث: وهل تزعم أنك ستجدها كما هي بعد خمسة عشر عامًا، إن تروسنا المصنوعة من الحديد الصلب لا تصمد كل هذه الفترة.

ـ لقد أصبحت راهبة بعد أن عهدت بها إلى تلك العائلة التقية على الفور.

ـ في خلال خمسة عشر عامًا، وفي تلك الأزمنة التي نعيشها لم يسلم أى دير مسيحي من الغزوات والخطف، وكل راهبة لديها الوقت لتترك الرهبنة وتعود إليها على الأقل أربع أو خمس مرات...

ـ على كل حال، أى عذراء قد اغتصبت تفترض وجود معتدٍ، سأعثر عليه وأحصل منه على اعتراف عن التاريخ الذي كانت فيه سوفرانيا ما زالت فتاة.

قال الإمبراطور: سأسمح لك بالرحيل على الفور إذا أردت ذلك. أعتقد أنه في هذه اللحظة لا شيء يهمك سوى حقك في الاحتفاظ باسمك وأسلحتك موضوع الجدل الآن. إذا كان هذا الشاب على حق فلن يمكنني الاحتفاظ بك في الخدمة، بل لن يمكنني أن أمنحك أية اعتبارات من أية وجهة نظر، ولا حتى المتأخر لك من مكافأة. ولم يتمكن شارلمان أن يمنع نفسه من أن يعطي لحديثه طابع متعجل من الرضا، كأنه يقول: "سترون أننا سنجد في النهاية الطريقة التي نتخلص بها من هذا المزعج؟"

تمايلت الدرع البيضاء كلها للأمام، ولأول مرة أعطت شعورًا بأنها فارغة بالفعل في هذه اللحظة، وكان الصوت يخرج منها بصعوبة: أجل يا إمبراطورى سأذهب.

ووجه شارلمان حديثه إلى توريسموندو: وأنت؟! هل تدرك أنه بإعلانك أنك مولود بلا زواج لا يمكنك الاحتفاظ بالرتبة التي كانت يمكن أن تُمنح لك؟ هل تعرف على الأقل مَن أبوك؟ هل لديك الأمل في أن يعترف بك؟

ـ لا يمكن الاعتراف قط ببنوتي...

ـ ليس صحيحًا، فأي رجل عندما تتقدم به السن يميل إلى أن يعاود حساباته من جديد. حتى أنا اعترفت بكل الأبناء الدين ولدوا من خليلاتي، وكانوا كثيرين، وبالتأكيد بعضهم ليسوا أبنائي بالفعل.

ـ ولكن أبى ليس رجلًا.

ـ ومَن إذن؟ بعلزيول؟!

قال توريسموندو وبهدوء: لا يا سيدي.

ـ مَنْ هو إذن.

تقدم توريسموندو حتى وصل إلى منتصف القاعة، وضع إحدى ركبتيه أرضًا، ورفع عينيه نحو السماء قائلًا: إنها الجماعة المقدسة لفرسان الكأس المقدسة.

سرت همهمة على المائدة. وبعض الفرسان رشم علامة الصليب. وفسر توريسموندو: كانت أمي طفلة شجاعة، وكانت تجري دائمًا في أعمق المناطق في الغابة التي كانت تحيط بالقصر. وفي أحد الأيام، وفي مكان كثيف الأشجار التقت فرسان الكأس المقدسة، كانوا يعسكرون هناك ليدعموا روح الانعزال عن العالم. وبدأت الطفلة تلعب مع هؤلاء المحاربين، ومنذ ذلك اليوم كانت في كل مرة تستطيع فيها الهروب من الرقابة

الأسرية كانت تذهب إلى مخيمهم. ولكن في فترة قصيرة وبسبب تلك الألعاب الطفولية أصبحت حُبلى.

أخذ شارلمان يفكر للحظة ثم قال: إن فرسان الكأس المقدسة قد نذروا جميعًا نذور العفة ولن يستطيع أي منهم الاعتراف بك ابنًا له.

قال تورسيموندو: ولا أنا أيضًا أريد ذلك. فأمي لم تحدثني عن فارس منهم بعينه، ولكنها ربتني أن أحترم كل الجماعة المقدسة في مجملها كأب لي.

إذن - اقترح شارلمان - إن الجماعة في مجملها غير مقيدة بأي نذر من هذا النوع، ولا شيء يمنعهم من الاعتراف بأبوة مخلوق إذا استطعت اللحاق بفرسان الكأس المقدسة والحصول منهم على اعتراف بأنك ابن للجماعة كلها، فإن حقوقك العسكرية، نظرًا لأهمية الجماعة، لن تختلف عن تلك الحقوق التي كانت لك كابن عائلة نبيلة.

قال توريسموندو: سأرحل.

كانت تلك الليلة هي ليلة الرحيل، هناك في معسكر الفرنجة. كان أجيلولفو يعد بدقة شديدة فريقه وحصانه، وكان حامل الترس جوردولو ممسكًا بعشوائية بالأغطية والحُلل صانعًا منها كومة تمنعه من رؤية أين هو ذاهب، ذاهبًا في الاتجاه المضاد لسيده وقافزًا بعيدًا فاقدًا كل شيء في طريقه.

لم يذهب أحد ليودع أجيلولفو الذي يستعد للرحيل فيما عدا عمال الإسطبل الفقراء والحدادين، وهم الذين لا يفرقون كثيرًا بين الواحد والآخر، وكانوا قد أدركوا أنه أكثر الضباط إثارة للمضايقة، ولكنه أكثرهم تعاسة أيضًا.

أما الفرسان، وبحجة أن أحدًا لم يخبرهم بساعة الرحيل لم يذهبوا، ثم إنهم لم يكونوا بحاجة إلى إيجاد عذر؛ فأجيلولفو منذ أن خرج من

المأدبة لم يوجه كلمة واحدة إلى أحد. لم يعلق أحد على رحيله: تم توزيع مهامه بحيث لا تبقى أي من مهامه شاغرة، واعتبار غياب الفارس غير الموجود شيئًا يستحق الصمت كأنه اتفاق عام من الجميع.

ولكن كانت برادامانتي الشخص الوحيد الذي تأثر بذلك، بل اضطربت بشدة. هرعت إلى خيمتها ودعت المربيات، والخادمات - هيا بسرعة! بسرعة! وأخذت تُلقي في الهواء بالملابس والتروس والرماح وكل شيء. كانت تقوم بذلك ليس كعادتها عند تغيير ملابسها، أو في حالات الغضب، بل لتنظم كل شيء، لتجرد الأشياء الموجودة وترحل.

- هيا أعددن لي كل شيء، سأرحل، سأرحل، لن أمكث هنا ولا لحظة واحدة، لقد رحل هو، الوحيد الذي كان يعطي معنى لهذا الجيش، الوحيد الذي كان يعطي معنى لحياتى ولحربي، والآن لم تبق سوى تلك المجموعة الفوضوية من السكارى والقساة، وأنا منهم أيضًا، والحياة ليست سوى التدحرج بين الأسّرة والنقالات، لم يكن أحد سواه يعرف الهندسة السرية، النظام، القاعدة التي بها نفهم البداية والنهاية!. في أثناء قولها هذا كانت ترتدي قطعة وراء أخرى من درعها الريفية، والرداء ذي اللون الأزرق الزهري، وسرعان ما كانت مستعدة فوق سرجها، كانت ذكورية في كل شيء فيما عدا تلك الطريقة المتكبرة التي للنساء الحقيقيات، عندما ينتابهن الخوف، ثم همزت الحصان لينطلق قالبًا الدعامات وأعمدة الخيام ومآدب الطعام، وسرعان ما اختفت خلف سحابة عالية من الأتربة.

وشهدت تلك السحابة رامبالدو الذي كان يجري مترجلًا باحثًا عنها وناداها: أين أنت ذاهبة! إلى أين يا برادامانتي! ها أنا هنا، هنا لأجلك، وأنت تهربين بعيدًا. قال ذلك بذلك الغضب العنيد لمن يحب ويرغب في أن يقول: "ها أنا ذا، شاب، ومفعم بالحب، كيف يمكن لحبي ألا يحوز إعجابك، ماذا تريد تلك التي لا تقبلني ولا تحبني، ماذا يمكنها أن ترغب في أكثر من ذلك الذي أشعر أنني أستطيع وأرغب في أن أفعله من

أجلها؟!. وهكذا أخذ يتساءل ولم يهدأ، فحبه لها هو أيضًا حبه لذاته، لذاته التي تحبها، وعشقًا لما يمكن أن يكوناه أو لا يكوناه معًا وفي وحتى توريسموندو رحل في هذه الليلة، حزينًا هو أيضًا ولكنه هو أيضاً مفعاً بالآمال. كان يرغب في العثور مرة أخرى على الغابة، تلك الغابة المعتمة بالرطوبة، التي قضى فيها طفولته، كان يرغب في العثور مرة أخرى على أمه، وعلى الأيام التي قضاها في الكهف، وكان يرغب أكثر في أعماقه في العثور على تلك الجماعة النقية لآبائه، المسلحين والساهرين حول نيران كهف خفي، يرتدون اللون الأبيض، صامتين، في أكثر مناطق الغابة كثافة، حيث الفروع منخفضة تكاد تلمس الأعشاب، ومن تلك الأراضي الغنية تنمو نباتات عش الغراب التي لا ترى الشمس أبدًا.

أما شارلمان، فقد قام من المأدبة وهو يتمايل، وعندما سمع تلك الأخبار الخاصة بحركات الرحيل المفاجئة تلك، اتجه إلى الجناح الملكي وهو يفكر في الزمن الذي كان فيه يرحل استولفو ورينالدو وجويدون سيلفاجو وأورلاندو لعمليات بطولية تنتهي بعد ذلك على أفواه الشعراء والمغنين، في حين أنه أصبح من الصعب الآن تحريك أولئك المسنين من هنا إلى هناك، إلا للضرورة القصوى في الخدمة. كان شارلمان يقول لنفسه "ليذهبوا، إنهم ما زالوا شبابًا، وليعملوا"، مثل العادة التي لرجال المهام الصعبة حيث إن الحركة بالنسبة إليهم هي خير دائمًا، ولكنه كان يقول ذلك أيضًا بالمرارة التي للشيوخ الذين يعانون فقدهم أشياء كانت لهم، أكثر من قدرتهم على الاستمتاع بتوقع ما هو جديد.

- VIII -

أيها الكتاب، حل المساء، وأخذت أكتب بسرعة، ومن النهر لم أعد أستمع إلا إلى هدير الشلال، وأمام النافذة تطير الخفافيش بصمت، وأسمع نباح بعض الكلاب، وبعض الأصوات الآتية من مستودعات التبن ربما لم يكن اختيارًا سيئًا من الرئيسة الأم فعلُ التوبة هذا؛ فمن حين إلى آخر أدرك أن الريشة أخذت تجري فوق الأوراق وحدها، وأنني أحاول اللحاق بها. إننا نجري معًا تجاه الحقيقة أنا والريشة، تجاه الحقيقة التي أتوقع دائمًا أن تقابلني وتظهر لي من عمق ورقة بيضاء، تلك الحقيقة التي سأتمكن من الوصول إليها فقط عندما أنجح بضربات ريشتي أن أدفن كل التكاسل وعدم الرضا، وكل الكراهية التي أنا هنا حبيسة لأواجهها.

ثم يكفي صوت فأر (وعلية الدير مليئة بها)، أو هبة رياح مفاجئة تتسبب في غلق النافذة بقوة (وهو شيء يؤدي دائماً إلى تحويل انتباهي، فأهرع لأفتحها من جديد)، بل يكفي أن أقترب من نهاية حدث ما في هذه القصة وبداية حدث آخر، أو مجرد أن أبدأ سطرًا جديدًا حتى تبدأ الريشة في التثاقل مثل الدعامة ويصبح السعي نحو الحقيقة أكثر صعوبة.

والآن عليّ أن أقدم الأراضي التي عبرها أجيلولفو وحاملُ ترسه في رحلتهما؛ فكل شيء فوق هذه الصفحة يجب أن يجعلنا ننتقل إلى هناك؛ كان الطريق الرئيس مُتربًا، وها هو النهر، والجسر، وها هو أجيلولفو يعبر فوق حصانه ذي الركلات الخفيفة؛ توك... توك... توك... توك...، فذلك الفارس بلا جسم، خفيف الوزن، والحصان يمكنه أن يسير أميالاً من دون أن يشعر بالتعب، وقائد الحصان لا يتعب هو الآخر. والآن فوق الجسر نسمع صوت قفزات أكثر ثقلاً..توتوتوتوم! إنه جوردولو الذي يتقدم وهو متعلق في رقبة حصانه، والرأسان متقاربان جدًا إلى حد أن لا أحد يعرف هل الحصان يفكر برأس حامل الترس أم أن حامل الترس هو الذي يفكر برأس الحصان. أخط فوق الورقة خطًا مستقيمًا، من حين إلى آخر تقطعه الزوايا، ويصبح هذا خط سير أجيلولفو.

أما ذلك الخط المصنوع من التشابكات والذهاب والإياب فهو مسار جوردولو. فبمجرد أن يرى فراشة ترفرف في الهواء يدفع جوردولو على الفور حصانه خلفها، ويعتقد أنه ليس على سرج الحصان، بل يمتطي الفراشة، وهكذا ينحرف عن الطريق، ويهيم في المراعي. وفي ذلك الوقت كان أجيلولفو يسير في المقدمة، في خط مستقيم. ومن حين إلى آخر كانت الطرق البعيدة عن الطريق التي يسلكها جوردولو تتقابل مع طرق مختصرة (أو أن الحصان نفسه هو الذي يقرر أن يتبع مدقًا من اختياره نظرًا إلى أن من يجلس فوقه لا يقوده) وبعد دورات ودورات يجد المتشرد نفسه بجوار سيده على الطريق الرئيس.

وهنا على شاطئ النهر سأرسم علامة لطاحونة. يتوقف أجيلولفو ليسأل عن الطريق. يجيبه بلطف الطحان ويقدم له نبيذًا وخبزًا، ولكنه يرفض، ولا يقبل سوى الغذاء لحصانه. الطريق مُترب ومُشمس؛ يتعجب عمال الطاحونة الطيبون أن الفارس لا يشعر بالعطش.

وعندما يرحل، يصل تسبقه ضوضاء، كأن هناك جيشًا يركض، جوردولو ويسأل:

ـ هل رأيتم سيدى؟

ـ ومن هو سيدك؟

ـ فارس... لا، بل حصان...

ـ هل أنت في خدمة الحصان؟

ـ لا... إن حصاني هو الذي في خدمة الحصان...

ـ ومَنْ الذي يمتطي ذلك الحصان؟

ـ هه... لا أحد يعرف.

ـ من يمتطي حصانك؟

ـ لا أعرف! اسألوه هو؟

ـ وأنت أيضًا مثله لا تريد أن تأكل وتشرب؟

ـ نعم نعم...! أريد أن آكل، وأشرب. وألتهم الطعام.

والآن سأرسم مدينة تحيط بها الأسوار. يجب على أجيلولفو أن يعبرها، يريد منه الحراس أن يكشف عن وجهه؛ فلديهم أوامر ألا يتركوا أحدًا يعبر ووجهه مختبئ، لأنه ربما يكون اللص الخطير الذي يجول في الأنحاء المجاورة. يرفض أجيلولفو، ويواجه الحراس بالسلاح ويفتح لنفسه طريقًا ثم يهرب.

وفيما وراء المدينة سأرسم غابة يجول فيها أجيلولفو طولاً وعرضًا حتى يقبض على اللص الخطير. ينزع سلاحه ويربطه بسلسلة ويجذبه حتى يصل به إلى الحراس الذين رفضوا أن يعبر: ها هو الذي يسبب لكم الرعب وقد قبضت عليه.

– فليباركك الرب أيها الفارس الأبيض! ولكن قل لنا من أنت، ولماذا تبقي غطاء خوذتك مغلقًا.

ـ اسمى سيتضح في نهاية رحلتي، قال هذا أجيلولفو، ومضى.

وفي المدينة قال البعض إنه ملاك، أو روح من المطهر. قال أحدهم: كان الحصان يجري بخفة كأنه لا يوجد أحد فوق سرجه.

وهنا حيث تنتهي الغابة، يظهر طريق آخر، طريق يصل هو أيضًا إلى المدينة. إنه الطريق الذي تقطعه برادامانتي. وتسأل من في المدينة: ابحث عن فارس درعه بيضاء. اعلم أنه هنا.

يجيبونها: لا، ليس هنا.

ـ إذا لم يكن هنا، فهو بالتأكيد من أبحث عنه.

ـ إذن اذهب لتبحث حيث هو، فلقد جرى بعيدًا من هنا.

ـ هل رأيتموه بالفعل؟ هو درع بيضاء ويبدو أن بداخلها رجلاً..

ـ من إذن إذا لم يكن رجلاً؟

ـ إنه أكبر كثيرًا من أي رجل آخر!

قال شيخ: تبدو لي كلماتك شيطانية، أنت أيها الفارس ذو الصوت العذب!

همزت برادامانتي حصانها وابتعدت.

وبعد قليل، وفي ميدان المدينة يتوقف رامبالدو بحصانه.

ـ هل رأيتم فارسًا يعبر من هنا؟

ـ أيهما؟ اثنان عبرا من هنا وأنت الثالث.

ـ ذلك الذي كان يجري خلف آخر.

- هل حقيقي أن أحدهما ليس رجلاً؟

- الثانى امرأة.

- والأول؟

- لا شيء.

- وأنت؟

- أنا؟ أنا... أنا رجل.

- يا للسماء...!

كان أجيلولفو يركض بحصانه يتبعه جوردولو. كانت هناك آنسة تجري في الطريق، شعرها مشعث وملابسها ممزقة، ثم جثت على ركبتيها أرضًا. أوقف أجيلولفو حصانه، أخذت هي تتوسل:

- النجدة أيها الفارس النبيل! على بعد نصف ميل من هنا يحاصر قطيع من الدببة المفترسة قلعة سيدتي، الأرملة النبيلة بريشيللا. ولا يسكن في تلك القلعة سوى بضع سيدات ضعيفات، لا أحد يمكنه الدخول أو الخروج، وقد تدليت أنا بواسطة حبل إلى أسفل، ونجوت بالكاد من أظفار تلك الحيوانات المتوحشة.

قال أجيلولفو: إن سيفي دائماً في خدمة الأرامل والمخلوقات الضعيفة. يا جوردولو، خذ فوق سرجك تلك الشابة التي ستقودنا إلى قصر سيدتها.

كانوا يسيرون فى مدق جبلي، وكان حامل الترس يتقدم الطريق، ولكنه لم يكن ينظر إليه. كان صدر المرأة التي تجلس بين ذراعيه يظهر ورديًا جميلًا وممتلئًا من بين ثنايا ثوبها، وكان جوردولو يشعر بالضياع.

كانت الشابة قد استدارت لتنظر إلى أجيلولفو وقالت:

- يا له من سلوك نبيل من سيدك.

- أجاب جوردولو وهو يمد إحدى يديه تجاه هذا الصدر الدافئ: آه، آه!

وأخذت تقول وهي ما زالت تنظر إلى أجيلولفو: إنه شديد الثقة بنفسه وحاسم في كل كلمة وفي كل إيماءة...

قال جوردولو: أوه! وحاول بكلتا يديه، وهو ممسك باللجام بمعصميه، أن يفهم كيف يمكن لشخص أن يكون متماسكًا وفي الوقت نفسه طريًا.

وقالت هي: وصوته! صوته قاطع ومعدني...

ولم يكن يخرج من فم جوردولو سوى عواء مكتوم، وذلك لأنه غرسه بين رقبة تلك الشابة وكتفيها وكان قد تاه فى تلك الرائحة.

- من يدري كم ستكون سيدتي سعيدة بأن يحررها هو بنفسه من الدببة... آه، كم أحسدها... ولكن قل لي؛ لماذا نبتعد عن الطريق، أيها الرجل، هل شردت؟!

وعند معطف المدق كان هناك ناسك ممسكًا بعلبة ويتسول، وتوقف أجيلولفو، الذي أمام أي متسول يقابله كان يتبع القاعدة ويعطي حسنة ثابتة قدرها ثلاث قطع نقدية، وأخذ يفتش في حقيبته.

قال الناسك وهو يضع النقود في جيبه: لتكن مباركًا أيها الفارس. ثم أشار إليه بأن ينحني ليتحدث معه في أذنه. سأكافئك على الفور بأن أقول لك احترس من الأرملة بريشيللا! إن قصة الدببة ليست سوى فخ، إنها هي بنفسها التي تربيها، وذلك ليحررها أكثر الفرسان قدرة من الذين يعبرون في الطريق الرئيس، فتجذبهم بالتالي إلى قلعتها وذلك ليرووا شهواتها التي لا تشبع.

أجابه أجيلولفو: ليكن ما تقوله أنت يا أخي! ولكنني فارس، وسيكون من غير اللائق ألا أستجيب لطلب إغاثة من امرأة تبكي.

- ألا تخشى نيران الشبق؟

شعر أجيلولفو بالخجل

الآن سنرى...

- أتعرف، ماذا يبقى من أي فارس بعد إقامته في هذه القلعة؟

- ماذا؟

- ما تراه الآن بعينيك. أنا أيضًا كنت فارسًا، أنا أيضًا أنقذت بريشيللا من الدببة والآن أنا هنا. وفي الحقيقة كانت حالته سيئة بالفعل.

- سأستفيد من تجربتك الثمينة يا أخي، ولكنني سأخوض التجربة.

وهمز أجيلولفو جواده مبتعدًا ووصل جوردولو ومعه الخادمة. وقالت الفتاة للفارس: لا أدري ماذا لديهم دائمًا ليثرثروا فيه، هؤلاء النساك، لا يوجد بين أى من المتدينين أو حتى العلمانيين من يثرثر ويتحدث بالسوء مثلهم.

- هل يوجد كثير من هؤلاء النساك هنا في المنطقة؟

- المنطقة ممتلئة بهم، ودائمًا ينضم إليهم أحد.

قال أجيلولفو: لن أكون أنا أحد هؤلاء، هيا لنسرع!

صاحت الشابة: أسمع زمجرة الدببة، إنني خائفة! دعوني أنزل وأختبئ خلف تلك الأشجار.

اقتحم أجيلولفو المنطقة التي تظهر فيها القلعة، وحولها كان كل شيء أسود بسبب الدببة. وبمجرد رؤيتهم الفارس والحصان صرت بأسنانها وتجاورت أحدها بجوار الآخر لتسد أمامه الطريق. هاجمها أجيلولفو وهو يلوح برمحه، طعن بعضًا منها، وصدم بعضًا الآخر، وأصاب البعض الآخر. لحق به جوردولو على جواده وأخذ يطعنها بالرمح. وفي خلال عشر دقائق كان من لم ينته الأمر به طريح أرضًا كالبساط قد هرع إلى أعماق الغابة.

وفُتح باب القلعة: أيها الفارس النبيل، هل يمكن أن أستضيفك، لأرد إليك ما أدين لك به؟

وأمام الباب كانت قد ظهرت بريشيللا، تحيط بها وصيفاتها وخادماتها. (وكانت تقف معهم الشابة التي كانت قد اصطحبت الاثنين إلى هناك: ولا أحد يفهم كيف، كانت في المنزل بالفعل وكانت ترتدي مريلة جميلة نظيفة، وليس الملابس الممزقة التي كانت ترتديها من قبل).

دخل أجيلولفو يتبعه جوردولو إلى القلعة، كانت الأرملة بريشيللا امرأة، ليست طويلة جدًا وليست ممتلئة القوام، ولكنها كانت ذات قوام مصقول، لم يكن نهداها ممتلئين ولكنهما كانا بارزين، كانت عيناها سوداوين ونظرتها ثاقبة، كانت امرأة لديها ما تقوله. كانت هناك، تقف أمام الدرع البيضاء لأجيلولفو، سعيدة. وكان الفارس متماسكًا ولكنه كان يشعر بالخجل.

قالت بريشيللا: أيها الفارس أجيلولفو إيمو برتراندينو داي جويلديفيرني، أعرف بالفعل اسمك، وأعرف جيدًا من أنت، وأنك بلا وجود.

وأمام ذلك التصريح شعر أجيلولفو أنه تحرر من ضيقه، وتخلص من خجله وتصرف بطريقة أكثر ارتياحًا. ولذلك فقد انحنى، وثنى إحدى ركبتيه أرضًا وقال: "خادمك" وقام بسرعة.

قالت بريشيللا: لقد سمعت الكثير يُقال عنك، ومنذ فترة كانت رغبتي شديدة في أن ألتقيك. ما المعجزة التي أحضرتك إلى هذا الطريق البعيد هكذا؟

قال أجيلولفو: إنني في رحلة لألحق، قبل فوات الأوان، عذرية عمرها نحو خمسة عشر عامًا.

قالت بريشيللا: لم أسمع قط بحملة فروسية تستهدف شيئًا ملتبسًا بهذه الطريقة. ولكن إذا كانت قد مرت بالفعل خمسة عشر عامًا، فلن أخشى أن أجعلك تتأخر ليلة أخرى، وأن أطلب إليك أن تمكث ضيفًا على قلعتي. واقتربت منه.

مكثت السيدات الأخريات يحملقن فيه، حتى اختفى مع صاحبة القلعة في ملحق الصالة، عندئذ التفتن جميعًا إلى جوردولو.

- أوه، آه يا لها من لمسة جميلة لمجرفة تبن.

قلن وهنّ يصفقن بأيديهن.

كان هو يقف هناك مثل الأبله، وكان يحك جسمه.

قلن: يا للأسف مليء بالبراغيث ورائحته نتنة جدًا! هيا بسرعة لنغسله، لننظفه! ثم أخذنه إلى منطقتهن وخلعن عنه ملابسه.

قادت بريشيللا أجيلولفو إلى مائدة مُعدة لشخصين.

وقالت له: أعرف طباعك وعاداتك، أيها الفارس، ولكنني لا أعرف كيف أبدأ وأكرمك، إلا بأن أدعوك إلى هذه المائدة. ثم قالت بخبث: وبالتأكيد لن تتوقف علامات العرفان التي أرغب في تقديمها لك عند هذا الحد.

شكرها أجيلولفو، وجلس أمامها، وأخذ يفتت بعض قطع الخبز بين أصابعه. التزم الصمت لبضع لحظات، ثم أخذ صوته يتضح، وانطلق يتحدث في كل شيء.

- إن المغامرات التي تعترض طريق الفارس المُغامر غريبة بالفعل يا سيدتي، وهي بالإضافة إلى ذلك يمكن أن تصنف في أنواع مختلفة: أولاً... وهكذا أخذ يتحدث، كان لطيفًا ودقيقًا، وعارفًا بأمور كثيرة، حتى إنه كان أحيانًا يكاد يقع في الدقة المبالغة ولكنه يصلح من نفسه على الفور بالاستعداد الذي به كان ينتقل للتحدث عن شيء آخر، مخففًا من العبارات

الجادة بجمل هزلية ومرحة غالبًا ما تكون مرتبطة بما يقوله، مطلقًا أحكاماً على الأحداث والأشخاص لا تمثل الموافقة الشديدة ولا المعارضة الشديدة، كان يترك تلك الأحكام لمستمعته، التي كان يترك لها المجالَ لتقول ما لديها، مشجعًا إياها بأسئلة مهذبة.

قالت بريشيللا بسعادة: آه يا لك من متحدث لبق.

وفجأة، وكما بدأ في الاسترسال في الحديث غاص أجيلولفو في الصمت التام. قالت بريشيللا وهي تصفق بيديها: والآن يبدأ الغناء.

وّدخلت إلى الصالة عازفات العود. عزفت إحدهن أغنية تقول:

" الحبيب سيقطف الوردة"، ثم تلك الأخرى: "هيا يا ياسمين املأ بعطرك الوسادة الجميلة..."

كان لدى أجيلولفو كلمات استحسان سواء للموسيقى أو للأصوات. ودخلت مجموعة من الشابات المكان وهن يرقصن. كن يرتدين قمصانًا خفيفة ويضعن شرطًا بين شعورهن. كان أجيلولفو يتبع الرقص وهو يدق مع الإيقاع بقفازيه الحديدين فوق المائدة.

وكانت الرقصات في الجناح الآخر من القلعة صاخبة أيضًا، وذلك في أروقة السيدات التابعات. كانت الشابات يلعبن الكرة وهن شبه عاريات ويتظاهرن بأنهن يشركن جوردولو معهن في اللعبة. وكان حامل الترس، يرتدي هو أيضًا قميصًا.. أعارته إياه السيدات، وبدلاً من أن يمكث في مكانه في انتظار الكرة عندما تُقذف إليه، كان يجري خلفهن ويحاول أن يمسك بهن بكل طريقة، مُلقيًا بنفسه كالجثة الهامدة فوق واحدة أو أخرى من الفتيات، وفي هذا الصخب كان غالبًا ما يواجه بتنهد، وكان يدور مع المرأة على إحدى الوسائد الناعمة التي كانت مبعثرة في المكان.

- آوه! ماذا تفعل؟ لا، لا، أيها الحيوان! آه، انظروا ماذا يفعل بي، لا، أريد فقط أن ألعب بالكرة، آه، آه، آه.

لم يعد جوردولو يفهم أي شيء. بين المياه الدافئة الذي جعلوه يستحم فيها، وبين روائح العطور وتلك الأجسام البيضاء والوردية، كانت رغبته الوحيدة هي أن يغوص في تلك الروائح.

- آه، إنه هنا مرة أخرى، يا أمي، ولكن استمع قليلاً....

وكانت الأخريات تلعبن بالكرة كأن لا شيء يحدث، كن يمزحن ويغنين: لا لا لا، فالقمر يطير في الأعالي...

أما الفتاة التي جذبها جوردولو بعيداً، فقد كانت تعود بعد صرخة طويلة بين زميلاتها، وجهها محتقن قليلًا، ومندهشة، وهي تضحك وتضرب بيديها: هيا، هيا، لتلقوا بالكرة إليّ! وتعود لتنضم إلى اللعب معهن.

ولا يمر وقت كثير ويبدأ جوردولو في الدوران مع أخرى.

- ابتعد بعيداً، يا لك من مزعج، يا لك من عنيد، لا، إنك تؤلمني، ولكن.... ـ ثم تستسلم.

نساء أخريات وشابات ممن لم يشاركن في اللعب، كن يجلسن فوق المقاعد الخشبية ويتناقشن فيما بينهن:

ـ .. لأن فيلومينا، كما تعلمن، كانت تشعر بالغيرة من كلارا... ـ ثم تشعر بجوردولو وهي يمسكها من خصرها، - آه! يا للفزع!... ولكنني كنت أقول، يبدو أن فيليجلمو صادق أوفميا... ولكن أين تأخذني...؟ - وكان جوردولو قد حملها بالفعل فوق كتفه ـ هل فهمتم؟ تلك الحمقاء الأخرى، وبغيرتها المعتادة... ـ كانت تستكمل ثرثرتها وإيماءتها للنساء، وهي تتدلى من فوق كتف جوردولو، ثم تختفي.

ثم تعود بعد قليل، منفوشة الشعر وإحدى حمالتيها ممزقة، لتجلس مرة أخرى في مكانها وتستأنف الحديث: إن هذا ما حدث تماماً، فلقد قامت فيلومينا بالمشاجرة مع كلارا، أما الآخر...

ومن الصالة حيث أقيمت المأدبة، كانت الراقصات والعازفات قد انسحبن. وأطال أجيلولفو في سرد قائمة الألحان التي كثيرًا ما تعزفها فرقة الإمبراطور شارلمان لصاحبة القلعة.

وقالت بريشيللا: حل الظلام...

وافقها أجيلولفو: إنه الليل، ليل عميق...

- إن الحجرة التي خصصتها لك...

- أشكرك، هل تسمعين صوت العندليب في الحديقة.

- إن الحجرة التي خصصتها لك... هي حجرتي...

- إن ضيافتك ممتعة... إن العندليب يغرد من فوق البلوط تلك. فلنقترب من النافذة.

نهض، مد ذراعه الحديدية واقترب من الشرفة، وكان تغريد العندليب نقطة انطلاقة لإيحاءات كثيرة شاعرية وأسطورية.

ولكن بريشيللا قاطعته بحدة: إذن فالعندليب يغرد للحب. ونحن...

صرخ أجيلولفو: آه! الحب... بتغيير مفاجئ في نبرة صوته بطريقة أفزعت بريشيللا.

وانطلق هو فجأة بلا مقدمات في حديث مطول عن مشاعر الحب. واشتعلت مشاعر بريشيللا برقة، فجذبته، وهي تستند إلى ذراعه، إلى حجرة يشغلها فراش كبير تغطيه ستارة.

واستمر أجيلولفو في حديثه مستفيضًا: ولدى القدماء، ونظرًا إلى أن الحب كان يُعد أحد الآلهة...

أوصدت بريشيللا الباب، واقتربت منه، أحنت رأسها على ذرعه وقالت: أشعر بالبرد، والمدفأة انطفأت...

قال أجيلولفو: إن رأى القدماء يتعارض فيما يتعلق إذا كان من الأفضل ممارسة الحب فى حجرات باردة أم دافئة. ولكن نصيحة الأغلبية...

همهمت بريشيللا: أوه، إنك تعرف كل شيء عن الحب...

- ونصيحة الأغلبية، وبالرغم من استبعاد الأجواء الخانقة، تميل إلى وجود حرارة طبعية...

- يجب أن أستدعي النساء لإشعال النيران؟

- سأشعلها أنا بنفسي. وفحص الأخشاب الموضوعة بالقرب من المدفأة، استعرض قوة اشتعال أنواع الخشب المختلفة، وعدد الطرائق المتنوعة لإشعال النيران في الأماكن المفتوحة أو في تلك المغلقة. ولكن قاطعته تنهيدة من بريشيللا، كأنه أدرك أن تلك الأحاديث الجديدة لا بد أن تشتت ذلك الاشتياق إلى العشق الذي كاد يبدأ، فتحول على الفور ليزين حديثه عن النيران، وعن إشارات ومقارنات وإيحاءات حول حرارة المشاعر والأحاسيس.

عادت بريشيللا تبتسم، وبعينين مغمضتين مدت يديها تجاه النيران التي بدأت في الاشتعال وقالت: يا له من دفء ممتع... كم سيكون عذبًا الاستمتاع به متدثرين بين الأغطية...

وأوحى موضوع الفراش لأجيلولفو بمجموعة من الملحوظات الجديدة؛ فهو يرى أن الفن الصعب في تجهيز الفراش لا تعلم عنه خادمات فرنسا شيئًا، وأنه في أنبل القصور لا توجد سوى ملاءات موضوعة بشكل سيئ...

فسألته الأرملة: آه لا، قل لي، حتى فراشي...؟

- بالتأكيد إن فراشك يليق بملكة، أعظم من أي فراش آخر موجود في كل الأراضي الإمبراطورية، ولكن اسمحي لي، لرغبتي في أن أراك محاطة فقط بأشياء تليق بك من كل زاوية، أن أعيد النظر في هذه الثنية ....

صرخت بريشيللا: آه، هذه الثنية! . مأخوذة هي أيضًا بذلك التأثير المُدمر للبحث عن الكمال الذي نقله لها أجيلوافو.

قاما بإزالة أغطية الفراش طبقة وراء الأخرى، وهما يكتشفان ويشجبان الانتفاخات الصغيرة والانكماشات، أجزاء مشدودة أكثر من اللازم أو متروكة بالعكس، وأصبح هذا البحث شيئًا لا يُطاق وذلك بارتفاع الشمس أكثر في السماء...

وبعد أن قلبا الفراش رأسًا على عقب حتى قاع الفراش، أخذ أجيلولفو ينظمه من جديد تبعًا للقواعد. كانت عملية دقيقة؛ لا شيء فيها يتم بمحض المصادفة، وفيها تُستخدم مواضع سرية ... وكان هو يشرح باستفاضة إلى الأرملة. ولكن من حين إلى آخر كان هناك شيء يشعره بعدم الرضا عما يفعله، عندئذ كان يبدأ كل شيء من جديد.

ومن أجنحة القلعة الأخرى كانت تصل إليهم أصوات صراخ، بل أصوات خوار وزمجرة واضحة.

تجفل بريشيللا: ما هذا؟

يقول هو: لا شيء، إنه صوت حامل ترسي؟

ومع تلك الصرخة تختلط صرخات أخرى أكثر حدة، كأنها تنهدات صارخة تصل إلى النجوم.

يتساءل أجيلولفو: والآن ما هذا؟

تقول بريشيللا: آه، إنهن الصبايا، يلعبن ... كما تعرف... الشباب...

ويستمر في تنظيم الفراش، وهما يسترقون السمع ـ من حين إلى آخر إلى ضوضاء الليل.

- جوردولو يصرخ...

- يا الهي من نساء صاخبات...

- العندليب.

- صرصار الليل...

والآن أصبح الفراش مُعدًا لا عيب فيه. التفت أجيلولفو نحو الأرملة. كانت عارية، وكانت ملابسها قد نزلت برقة إلى الأرض.

صرخ أجيلولفو: تُنصح النساء العاريات، للحصول على أعلى درجة من انفعالات الأحاسيس باحتضان محارب يرتدي درعه.

قالت بريشيللا: أحسنت! وأتيت أنت لتعلمني هذا! أنا لست مولودة بالأمس! ..في أثناء قولها هذا قفزت وتعلقت به، وهي ممسكة بقوة بقدميها وذراعيها حول درعه.

وجربت مرة بعد الأخرى كل الطرائق التي يمكن بها احتضان الدرع، ثم تسللت بخفة إلى الفراش.

إنحنى أجيلولفو على حافة الفراش وقال: الشعر!

لم تكن بريشيللا أثناء خلعها ملابسها قد فكت التسريحة العالية لشعرها البني. وأخذ أجيلولفو يوضح كيف يمكن الشعر غير المنظم التدخل في نقل الأحاسيس - فلنجرب. وبحركات واثقة ورقيقة من يديه الحديدتين، فك الضفائر جاعلاً شعرها ينسدل على صدرها وكتفيها.

ثم أضاف: ولكن، من المؤكد أن الأدهى هو من يفضل المرأة ذات الجسم العاري، ولكن بشعرها ليس فقط مصففًا من كل جانب، ولكن مزينًا أيضًا بالأوشحة والأكاليل.

- لنحاول من جديد؟

- سأمشطك أنا... أخذ يصفف شعرها، وأثبت براعته في شبك الضفائر، في لفها وتثبيتها على الرأس بدبابيس الشعر. ثم أخذ يعد تصفيفة شعر رائعة من الأوشحة والقلادات وهكذا مرت ساعة، ولكن

عندما وضع المرآة أمام بريشيللا أدركت أنها لم تر نفسها بهذا الجمال من قبل.

ودعاها لترقد بجواره وقال لها: يقولون إن كليوباترا كل ليلة كانت تحلم بأن يكون في فراشها فارس يرتدي درعه.

اعترفت هي: لم أجرب هذا قط، الجميع ينزعونه قبل ذلك بكثير.

- حسن، الآن ستجربين.

وبهدوء ودون أن يجعد الأغطية دخل مسلحًا تمامًا في الفراش وتمدد متماسكًا كأنه بداخل تابوت...

- ولن تنزع أيضًا سيفك من غمده؟

- إن شهوة الحب لا يعترضها شيء.

أغلقت بريشيللا عينيها بافتتان...

رفع أجيلولفو نفسه على أحد مرفقيه... بدأ الدخان يتصاعد من النيران، سأنهض لأرى لماذا لا تخرج المدخنة الدخان.

وفي النافذة كان القمر بارزًا، عائدًا من أمام المدخنة تجاه الفراش، وقف أجيلولفو: سيدتي، لنذهب إلى الشرفة لنستمتع بضوء القمر المتأخر هذا.

ولفها بعباءته، وصعدا ملتصقين فوق البرج، وكان القمر يلون الغابة باللون الفضي، وكان البوم يغف. وكانت هناك بعض نوافذ القصر ما زالت مضاءة ويتصاعد منها من حين إلى آخر صرخات أو ضحكات أو تنهدات أو زمجرة من حامل الترس.

- إن كل الطبيعة حب...

ثم عادا إلى الغرفة، كانت المدفأة قد أطفئت تقريبًا، أخذ كل منهما يداعب الآخر بالنفخ على ذراعيه. وبمكوثهما هكذا ملتصقين كانت ركبتا بريشيللا الورديتان تلامسان ركبتيه الحديدتين، وبدأ ينشأ بينهما نوع من الحميمية، أكثر براءة.

وعندما عادت بريشيللا لترقد على المخدع كان ضوء الفجر قد بدأ يتخلل النافذة. فقال أجيلولفو: لا شيء يوضح وجه المرأة أكثر من الإشعاعات الأولى للفجر. وحتى يظهر وجهها بشكل أفضل في الضوء اضطر إلى أن ينقل الفراش والمظلة.

سألت المرأة: كيف أبدو؟

- رائعة الجمال.

كانت بريشيللا سعيدة. إلا أن الشمس كانت تشرق بسرعة، وليتبع أشعتها كان أجيلولفو ينقل الفراش باستمرار.

قال وقد تغير صوته: إنه الفجر، واجبي كفارس يحتم عليّ أن أنطلق.

تنهدت بريشيللا: فعلا! وفي هذه اللحظة بالذات!

ـ يؤلمني هذا يا سيدتي الكريمة، ولكن ما يدفعني واجب جسيم.

ـ آه، كم كان جميلاً!

انحنى أجيلولفو: باركيني يا بريشيللا.

ثم نهض ونادى على حامل ترسه، أخذ يبحث عنه في القلعة وأخيرًا عثر عليه، نائمًا كالميت في شيء يشبه مأوى الكلب.

ـ هيا بسرعة، إلى السرج!

ولكنه كان لابد أن يحمله.

ورسمت شمس الشروق وجهيّ الفارسين على جواديهما على حواف أوراق الأشجار: حامل الترس كأنه الجوال هناك يتأرجح، والفارس مستقيمًا يسير متبخترًا كأنه خيال رقيق لشجرة حور.

وحول بريشيللا التفت الوصيفات والخادمات

ـ كيف كان يا سيدتي؟ كيف كان؟

ـ آه لو تعرفون! رجل ... رجل...

ـ ولكن قولي لنا، احكي لنا، كيف كان؟

ـ رجل...رجل... ليلة كالنعيم...

ـ ولكن ماذا فعل؟ ماذا فعل؟

ـ كيف يمكنني أن أقول؟ كان شيئًا جميلاً...

ـ ولكن هل كان هكذا في كل شيء؟ أم أنه... قولي لنا...

ـ الآن لا أعرف كيف... أشياء كثيرة... ولكن أنتم؟ ماذا فعلتم بحامل الترس؟

ـ لا شيء، لا أعرف، ربما تعرفين أنت؟ لا، أنت! ولكنني لا أتذكر...

ـ ولكن كيف، كنا نسمع أصواتكن يا عزيزاتي...

ـ ولكن من يدري، مسكين، أنا لا أتذكر، وأنا أيضًا لا أتذكر، ربما أنت... من، أنا؟ سيدتي حدثينا عن الفارس، كيف كان أجيلولفو؟

ـ اوه، أجيلولفو!!

- IX -

أنا التي أكتب هذا الكتاب، أتابع على ورق يكاد لا يُقرأ تقريبًا أخبارًا قديمة، أدرك الآن فقط أنني قد ملأت صفحات وصفحات وما زلت في بداية قصتي. والآن سيبدأ التطور الحقيقي للحدث، أي رحلات المغامرات التي سيقوم بها أجيلولفو وحامل ترسه ليصلا إلى دليل عذرية سوفرونيا، وهي المغامرات التي ستتشابك مع مغامرات برادامانتي التابعة والمتبوعة، ومغامرات رامبالدو العاشق، وتوريسموندو الذي يبحث عن فرسان الجرال.

ولكن هذا الخيط بدلاً من أن يجري سريعًا بين أصابعي ها هو يسترخي ويتعثر، وإذا فكرت في كم لا يزال عليّ أن أضع على الورق من خرائط من الطرق والرحلات والعقبات والمطاردات والخدع والمبارزات والمسابقات لشعرت بأنني أغرق.

هكذا غيرني ذلك الدور بوصفى كاتبة في الدير، وغيرتني الرغبة في التوبة من خلال البحث عن الكلمات والتأمل في الجوهر الأساسي للأشياء: أي التشابك بين المغامرات في أي رواية من روايات الفروسية: ذلك الذي يعده الناس ـ وأنا أيضًا حتى هذه اللحظة ـ أكثر الأجزاء متعة وبعدًا عن أفكاري.

أريد أن أجري وأحكي، أن أحكي بسرعة، أحكي قصصًا في كل صفحة، قصص مبارزات ومعارك تكفي لتصبح ملحمة، ولكن إذا توقفت وحاولت أن أعيد قراءة ما كتبته أدرك أن ريشتي لم تترك أثرًا في الورق، وأن الصفحات ما زالت بيضاء.

ولأحكي كما أريد يجب أن تصبح هذه الصفحة البيضاء مظللة بمنحدرات حمراء اللون تظهر في نهايتها منطقة رملية كثيفة، مليئة بالحصى، وفيها تنمو نباتات خشنة، وأشجار العرعر. وفي الوسط، حيث يتلوى مدق غير ممهد، سأجعل أجيلولفو يعبر وهو مستقيم فوق السرج وسيفه في غمده. ولكن أكثر من كونه مجرد طريق متسع صخري، يجب أن تكون هذه الصخرة في الوقت نفسه كقبة سماوية مسطحة على مستوى منخفض، لا شيء فيها إلا طيران الغربان ونعيبها. ويجب أن أتمكن بالريشة من أن أنقش الورقة ولكن بخفة، لأنه لا يبدو من المرعى الأخضر سوى مسار زحف ثعبان النباتات المختبئ وسط الأعشاب، والأرض التي يجتازها أرنب بري، فهو خرج الآن إلى النور، توقف، تشمم حوله في الأروقة بشواربه ثم اختفى.

كل شيء يتحرك فوق تلك الصفحة الملساء من دون أن يغير شيئًا من سطحها، كأن كل شيء يتحرك، ولكن لا شيء يتغير في طبقة الأرض الخشنة، كأنه يوجد امتداد واحد فقط للمادة نفسها، تمامًا كالورقة التي أكتب عليها، فهي امتداد يتقابل ويتجلط في أشكال وتكوينات مختلفة وبتنويعات مختلفة من الألوان، ولكن يمكن في كل الأحوال أن يبدو منبسطًا على سطح أملس، حتى في مناطق تكدسه الكثيفة أو المليئة بالأشواك والكثيرة العقد، كأنه درع السلحفاة. وتبدو تلك المتكدسات أو الأشواك أو العقد أحيانًا كأنها تتحرك، أو أن هناك تغييرات في العلاقات بين الخصائص المتنوعة الموزعة في امتداد المادة الملتفة حولها، ولكن دون أن يتحرك أي شيء في الأساس. يمكن أن نقول إن الوحيد الذي يقوم بحركة

ما في وسط كل هذا هو أجيلولفو، ولا أقول حصانه، ولا درعه، ولكنه ذلك الشيء الوحيد، القلق، نافد الصبر الذي يرحل فوق الحصان بداخل الدرع. كانت ثمار الصنوبر تتساقط حوله من فوق الفروع، وكانت جداول المياه تجري بين الصخور، والأسماك تسبح في مجاري المياه، والديدان تأكل الأوراق، والسلاحف تزحف ببطونها الثقيلة على الأرض، ولكن كان هذا كله مجرد حركة وهمية، ذهاب وإياب مستمر مثل حركة مياه الأمواج. وفي هذه الأمواج يتقلب جوردولو، سجين بساط الأشياء، منبسطًا هو أيضًا في العجين نفسه مثل الصنوبر والأسماك، الديدان والحصى، الأوراق والزوائد الكثيرة فوق سطح الكرة الأرضية.

تواجهني صعوبة في محاولة الإشارة فوق تلك الورقة إلى مسار برادامانتي أو رامبالدو أو توريسموندو الكئيب! لا بد أن يكون هناك فوق ذلك السطح المتجانس تغيير طفيف، نمو بسيط لشيء ما، شيء يمكن الحصول عليه بالتخطيط من أسفل الورقة بشيء مدبب، ولكن في ذلك التغيير الطفيف، المحمل والمبلل دائمًا بتلك العجينة العامة للعالم، يكمن معنى الجمال والألم، وفيه يوجد النزاع والحركة.

ولكن كيف يمكنني أن أستكمل القصة إذا أخذت أجرح هكذا الصفحات البيضاء، وأن أحفر بداخلها أودية ضيقة، وأن أجعل التجاعيد تملؤها، مسجلة فيها قفزات الفرسان؟ سيكون من الأفضل لكي أساعد نفسي على السرد أن أرسم خريطة بالأماكن، عليها فرنسا، ذلك البلد العذب، وبريطانيا المتعالية، وقناة إنجلترا التي تغطيها السحب السوداء. وهناك فوق أرسم اسكتلندا العالية، وهنا في أسفل أرسم جبال البرينيه الوعرة، وإسبانيا التي لا تزال في يد الأعداء، وإفريقيا جحر الثعابين. ثم يمكنني أن أشير إلى مسار كل بطل بالأسهم والعلامات والأرقام. وها أنا، ومن خلال خط سريع، وبالرغم من المعوقات، أنقل أجيلولفو إلى إنجلترا وأجعله يتوجه صوب الدير الذي اعتزلت فيه سوفرونيا منذ خمسة عشر عامًا.

وصل إلى هناك، وكان الدير عبارة عن كتلة من الخراب. قال شخص مسن: وصلت متأخرًا جدًا أيها الفارس النبيل، ما زالت تلك الأودية تدوي بصراخ تلك البائسات. لقد هاجمهن أسطولاً من القراصنة العرب رسا عند هذه السواحل، والآن لم يبق هناك أي شيء من الدير، لقلد أخذوا كل الراهبات جواري، وأشعلوا النيران في كل الجدران.

ـ أخذوهن؟ إلى أين؟

ـ جواري يتم بيعهن في المغرب يا سيدي.

ـ هل كانت بين تلك الراهبات واحدة، كانت ابنة ملك اسكتلندا، سوفرونيا؟

ـ آه هل تقصد الأخت بالميرا! كانت بينهن، لقد حملها هؤلاء الأوغاد على أكتافهم، فهي محط إعجاب الجميع مع أنها لم تعد شابة صغيرة. أتذكرها كأن هذا حدث الآن، كانت تصرخ وتئن من هؤلاء المتوحشين.

ـ هل كنتم موجودين وقت الهجوم؟

ـ وكيف لا، فنحن في البلدة ـ كما هو معروف ـ موجودون دائمًا في الميدان.

ـ ولم تحاولوا مساعدتهن؟

ـ من؟ حسن يا سيدي حدث كل شيء فجأة... ونحن لا خبرة لنا ولا قيادة... وكنا مترددين بين أن نفعل شيئًا وبين أن نؤذي أنفسنا، فقررنا ألا نفعل شيئًا...

ـ ولكن قل لي، هل كانت سوفرونيا مشهورة بحياة التقوى في الدير؟

ـ إن راهبات هذه الأيام من كل شكل ونوع، ولكن الأخت بالميرا كانت الأكثر ورعًا وطهارة بين كل راهبات الأبرشية.

ـ هيا يا جوردولو، لنذهب إلى الميناء، سنبحر إلى المغرب.

كل هذا الذي أشير إليه بخطوط متعرجة هو البحر، بل المحيط.

الآن سأرسم السفينة التي سيبحر أجيلولفو على متنها، هناك في أسفل أرسم حوتًا ضخمًا ولافتة مكتوبًا عليها "المحيط". هذا السهم يشير إلى مسار السفينة. يمكنني أن أرسم أيضًا سهمًا آخر يشير إلى خط سير الحوت؛ طراخ: سيتقابلان. عند هذه النقطة إذن في المحيط سيحدث صدام بين الحوت والسفينة. ونظرًا إلى أنني رسمت الحوت أكبر كثيرًا، سيكون مصير السفينة الهلاك. والآن أرسم سهامًا كثيرة متشابكة في كل الاتجاهات لأعبر عن أنه في هذه النقطة تحدث معركة ضارية بين الحوت والسفينة.

أخذ أجيلولفو يبارز بمهارته المعتادة، وغرس رمحه في أحد جوانب الحوت، فغطاه اندفاع كريه من زيت الحوت، وسأعبر عن هذا بالرسم بهذه الخطوط المتنوعة. قفز جوردولو على الحوت ونسي السفينة، وبضربة من ذيله قلب الحوت السفينة. أما أجيلولفو بدرعه الحديدية فقد هبط سريعًا إلى الأعماق. وقبل أن تغمره الأمواج، صرخ في حامل ترسه: لنتقابل في المغرب، سأذهب إلي هناك سيرًا على الأقدام!

في الواقع، بسقوطه إلى أسفل إلى الأعماق أميالاً وأميالاً، نزل أجيلولفو ليلمس بقدميه عمق البحر، وأخذ يسير بخطوات سريعة. وكثيرًا ما كان يقابل وحوشًا بحرية، ويدافع عن نفسه بضربات سيفه. الشيء الوحيد المزعج لدرع في عمق المياه، كما تعرفون أنتم أيضًا، هو الصدأ. ولكن نظرًا لأن الدرع البيضاء قد أغرقها زيت الحوت من رأسها إلى قدميها، فقد أصبحت مغطاة بطبقة من الشحم تحميها من الصدأ.

والآن سأرسم في المحيط أستارًا متحركة. ابتلع جوردولو كمية من المياه المالحة قبل أن يدرك أن البحر ليس هو ما يجب أن يبقى بداخله، ولكن أنه هو، جوردولو، من يجب أن يبقى بداخل البحر، وأخيرًا تعلق بغطاء ترسة بحرية ضخمة. كان يتركها تنقله بعض الوقت حيثما تريد، وأحيانًا

أخرى كان يحاول قيادتها بركلاته وقرصه. اقترب من سواحل إفريقيا. وهنا سيتعلق في شباك صيادين مغاربة. عندما جذب الصيادون الشبكة إلى متن السفينة، وجدوا أمامهم وسط سرب من سمك التريليا الواثبة رجلاً يرتدي ملابس مغطاة بالفطر والأعشاب البحرية.

أخذوا يصرخون: الرجل السمكة! الرجل السمكة!

قال ربان السفينة: لا، إنه ليس الرجل السمكة، إنه جودي أوسوف! إنه جودي أوسوف، إنني أعرفه!

وكان اسم جودي أوسوف بالطبع هو أحد أسماء جوردولو في المطابخ العربية، عندما كان يعبر من دون أن يدرك الحدود، ويجد نفسه في معسكرات جيش السلطان.

كان ربان السفينة ضابطًا في الجيش العربي في أرض إسبانيا، وكان يعرف جوردولو بجسمه الضخم، وروحه العذبة، وأخذه معه ليصبح صياداً للمحار.

وفي إحدى الأمسيات كان الصيادون وجوردولو في وسطهم يجلسون على أحجار الشاطئ المغربي، يفتحون المحار الذي قاموا باصطياده، عندما برزت من أسفل صفحة المياه قمة خوذة، ثم الخوذة برمتها، ثم الترس، تلتهُ درع بأكملها، أخذ يقترب من الشاطئ وهو يسير خطوة تلو الأخرى. أخذ الصيادون يصرخون وهم يجرون وقد تملك منهم الفزع ليختبئوا بين النباتات: إنه سرطان البحر.

قال جوردولو: إنه ليس سرطان البحر! إنه سيدي! لا بد أنك منهك أيها الفارس. لقد قطعت المسافة كلها على قدميك!

أجابه أجيلولفو: لست أشعر بالتعب أبدًا وأنت، ماذا تفعل هنا؟

أجاب الضابط السابق: نحن نبحث عن لآلئ للسلطان، الذي يجب أن يقدم كل مساء لؤلؤة جديدة لزوجة جديدة.

نظرًا لأن السلطان له ثلاثمائة وخمس وستون زوجة، فهو يلتقي واحدة منهن كل ليلة، ومن ثم يلتقي كل زوجة ليلة واحدة في السنة. وكان معتادًا أن يهدي لؤلؤة إلى كل مَنْ يلتقيها، ولذلك فكل يوم يجب على التجار أن يزودوه بلؤلؤة طازجة. ولأن اللآلئ نفدت لدى التجار، لجئوا إلى الصيادين ليجلبوا لهم اللآلئ بأي ثمن. وقال الضابط الأسبق لأجيلولفو: لماذا لا تشترك معنا في هذا المشروع بما لديك من قدرة خارقة على السير في أعماق المياه؟

ـ إن الفارس لا يشارك في مشروعات هدفها الربح، خاصة إذا كان يقودها أعداؤه. أشكرك كثيرًا، أيها العدو، لأنك أنقذت وأطعمت حامل ترسي هذا، ولكن إذا لم يتمكن سلطانكم هذه الليلة من إهداء أية لؤلؤة إلى زوجته رقم ثلاثمائة وخمس وستين فهذا شيء لا يهمني البتة.

– قال الصياد: ولكنه يهمنا كثيرًا، فنحن الذين سنتعرض للتعذيب. وهذه الليلة لن تكون ليلة زواج مثل أية ليلة أخرى. فاليوم دور عروس جديدة، سيذهب السلطان ليزورها أول مرة. لقد اشتراها منذ نحو سنة من بعض القراصنة، وانتظرت حتى الآن دورها، ولن يكون من اللائق أن يذهب إليها السلطان بيد فارغة، خاصة لأن الأمر يتعلق بإحدى صاحبات الجلالة، سوفرونيا الإسكتلندية، سليلة العائلة الملكية. أحضروها إلى المغرب جارية، وتم ضمها إلى حرملك الملك.

قال له أجيلولفو من دون أن يظهر انفعاله: سأشير إليكم بالطريقة التي يمكن أن تنقذكم من الهلاك. يقترح التجار على السلطان أن يحضروا للعروس الجديدة هدية تخفف من شعورها بالحنين إلى بلادها البعيدة، أي درع كاملة لمحارب مسيحي.

ـ وأين سنجد هذه الدرع؟

ـ درعي!

كانت سوفرونيا تنتظر أن يأتي المساء في جناحها في قصر الحريم. ومن مشربية النافذة كانت تنظر إلى النخيل في الحديقة، وإلى أحواض الزرع. كان وقت الغروب، وتصاعد صوت المؤذن، وفي الحديقة بدأت الورود العطرة تتفتح للغروب. إنهم يطرقون الباب، آه حانت الساعة! لا إنها الطقوس المعتادة، لقد أحضروا هدية من السلطان. إنها درع، درع بيضاء اللون. من يدري ماذا يعني هذا.

عادت سوفرونيا، وحيدة من جديد، تنظر من النافذة، فقد ظلت حبيسة هذا المكان قرابة عام، بمجرد شرائها لتصبح عروسًا، أعطوها مكان زوجة طردها السلطان مؤخرًا، على أن يحين دورها بعد أكثر من أحد عشر شهرًا. كان المكوث في الحرملك من دون عمل أي شيء، يومًا بعد يوم، أكثر مللاً من المكوث في الدير.

قال صوت قادم من الخلف: أيتها النبيلة سوفرونيا!

استدارت، كانت الدرع هي التي تتحدث: أنا أجيلولفو داي جويلديفيرني الذي أنقذ من قبل فضيلتك غير المدنسة.

صرخت عروس السلطان بفزع: آه، النجدة. ثم استجمعت نفسها بعد ذلك: آه، أجل، لقد بدا لي بالفعل أنني رأيت هذه الدرع من قبل، وأنها ليست غريبةً عليّ، إنه أنت إذن، من وصل في الوقت المناسب منذ أعوام، ليمنع أحد قطاع الطرق من الاعتداء عليّ:...

ـ والآن وصلت في الوقت المناسب لأنقذك من براثن هذا الزواج.

ـ بالفعل... مفهوم...

وعندما أتى الحراس ليعلنوا عن قدوم السلطان هربًا معًا بقوة السيف، أخذت سوفرونيا تجري عبر الحدائق بجوار الفارس محتمية بعباءته. تم إطلاق أبواق الإنذار.

لم تكن الأحسمة القوية تستطيع شيئًا في مواجهة السيف الدقيق الماهر للمحارب ذي الدرع البيضاء. واستطاع ترسه صد هجوم رماح كتيبة كاملة. كان جوردولو ينتظر ومعه الخيول خلف إحدى أشجار التين الشوكي. وفي الميناء، كان هناك مركب شراعي معدًا بالفعل للرحيل إلى الأراضي المسيحية، رأت سوفرونيا من فوق سطح السفينة أشجار النخيل على الشاطئ وهي تبتعد.

والآن سأرسم المركب في البحر. وسأجعلها أكبر من تلك السابقة حتى إذا قابلت الحوت لا تحدث كوارث. وبهذا الخط المتعرج سأرسم مسار المركب الذي أريد أن أجعله يصل إلى سان مالو. المشكلة أنه هنا في أعالي خليج بيسكاليا توجد بالفعل فوضى كبيرة من الخطوط المتشابكة، ولذلك من الأفضل أن أجعل المركب يمر من هناك قليلاً، ثم أسفل من هنا، ثم إلى أسفل أكثر... ياللهول! ها هو يصطدم في السواحل الصخرية البريطانية، اصطدم بصخرة حادة فغرق. نجح أجيلولفو وجوردولو بصعوبة في إنقاذ سوفرونيا، وأوصلوها إلى الشاطئ.

كانت سوفرونيا تشعر بالتعب، فقرر أجيلولفو أن يتركها تختمي في مغارة، وأن يذهب هو وحامل ترسه إلى معسكر شارلمان ليعلن له أن عذريتها لم تمس حتى الآن، وهكذا أيضًا شرعية اسمه.

والآن سأضع علامة على المغارة في تلك المنطقة من السواحل البريطانية لأتمكن من العثور عليها بعد ذلك. لا أعلم ما هذا الخط الذي يعبر أيضًا هذه المنطقة، الآن وقد أصبحت ورقتي تداخلاً من الخطوط المرسومة في كل الاتجاهات. آه وجدتها! إنه الخط الخاص بمسار توريسموندو. إذن فالشاب المهموم يمر من هنا تمامًا، بينما ترقد سوفرونيا في المغارة. هو أيضًا سيقترب من المغارة، سيدخل ويراها.

X

وكيف وصل توريسموندو إلى هناك؟

في الوقت الذى كان فيه أجيلولفو يعبر فرنسا إلى إنجلترا، وإنجلترا إلى إفريقيا ومن إفريقيا إلى بريطانيا، كان الابن بالتبنى لدوقية كورونوفاليا قد عبر طولاً وعرضًا غابات الأمم المسيحية بحثًا عن المعسكر السرى لفرسان الجرال المقدس. وحيث إنه من سنة إلى أخرى اعتاد النظام المقدس أن يغير مقره ولا يظهر أبدًا وجوده للعلمانيين. لم يجد توريسموندو أية إشارة إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه. أخذ يسير بلا هدف حاملًا بداخله مشاعر قديمة كانت بالنسبة إليه هي واسم الجرال شيئًا واحدًا؛ ولكن هل كان يبحث عن النظام الرهباني للفرسان الأتقياء، أو بالأحرى كان يتبع ذكرى طفولته في أدغال إسكتلندا؟!

أحيانًا كان الظهور المفاجئ لواد أسود من أشجار اللاركس أو منحدر من الصخور الرمادية، في عمقها يتفجر واد أبيض من الرغاوي يملؤه بانفعال لا يمكنه تفسيره، وكان هو يعتبره إشارة: "ربما كانوا هناك، ربما كانوا قريبين".

وإن استمع في هذه اللحظة إلى صوت بومة مكتوم كان توريسموندو يتأكد، ويبدأ في إبعاد كل الأغصان باحثًا عن أثر. وكان غالبًا ما يصطدم بصياد ما تائه، أو براعٍ ومعه قطيعه.

وعندما وصل إلى أرض كورفالديا البعيدة، توقف في إحدى القرى وسأل سكانها أن يمنحوه بعضًا من الجبن والخبز. قال أحد الفلاحين: كنا سنعطي لك ما طلبته بكل سرور يا سيدي، ولكن انظر إليّ، وإلى زوجتي وأبنائي كيف تحولنا إلى هياكل عظمية!! إن القرابين التي لا بد لنا أن نقدمها للفرسان الموجودين هنا كثيرة بالفعل! إن هذه الغابة تعج بزملائك، حتى إن كانوا يرتدون ملابس مختلفة. هناك توجد فرقة كاملة، وفيما يتعلق بتزويدهم بما يحتاجون إليه، فأنت تفهم الحال، يقع هذا كله على كاهلنا!

ـ فرسان يعيشون في الغابة؟ وماذا يرتدون؟

ـ يرتدون عباءات بيضاء، وخوذات ذهبية اللون، وبها جناحا أوز لونهما أبيض على الجانبين.

ـ وهل هم أتقياء؟!

ـ أوه، من ناحية التقوى فهم كذلك فعلًا. فبالتأكيد هم لا يلوثون أيديهم بالنقود لأن ليس لديهم درهم واحد. ولكن لديهم طلبات كثيرة وعلينا نحن تلبيتها! والآن أصبحنا في حالة يرثى لها. إنها المجاعة. عندما يأتون في المرة القادمة، ماذا سيمكننا إعطاؤهم؟

وكان الشاب قد جرى بالفعل تجاه الغابة.

وبين المراعي، والمياه الهادئة لمجرى مياه، يعبره قطيع بطيء من الإوز. سار توريسموندو بمحاذاة النهر، وهو يتبعه. ومن بين الأغصان استمع إلى صوت هارب، تقدم الشاب إلى الأمام، وكان يبدو أحيانًا أن الصوت يتبعه وأحيانًا أخرى يسبقه. وحيث كانت الأغصان تتضاءل ظهر وجه إنسان.

كان فارسًا يرتدي خوذة مزينة بريش أبيض ممسكًا بحربة في يده، وممسكًا معها بآلة هارب، يعزف عليها كل فترة النغمة نفسها التي كانت تتبعه. لم يقل شيئًا، ولم تتجنب نظراته توريسموندو، ولكنها تجاوزته كأنها لم تدرك وجوده، إلا أنها بدت كأنها تصحبه. وعندما فصلت بينهما الأغصان والأشجار، ساعده على العثور على الطريق بأن عزف له نغمته. أراد توريسموندو التحدث معه، ولكنه تبعه صامتًا بخوف.

وصلا إلى منطقة بلا أشجار. في كل جانب كان يقف محاربون مسلحون بالرماح، ممسكون بتروس ذهبية، ملتفون في أردية بيضاء طويلة، واقفون بثبات، ينظر كل منهم إلى اتجاه مختلف، وأنظارهم تحدق في الفراغ. كان أحدهم يطعم أوزة بحبوب حنطة وهو يحملق في اتجاه آخر. وعند سماع نغمة هارب جديدة، أجاب محارب آخر يمتطي حصانًا رافعًا البوق ومطلقًا نغمة نداء طويلة عند سماعها تحرك المحاربون وتقدموا بضع خطوات، كل منهم في اتجاهه الخاص، وتوقفوا من جديد.

ـ تشجع توريسموندو وقال: أيها الفرسان، اسمحوا لي، ربما أكون مخطئًا، ولكن ألستم أنتم فرسان الجرا....

قاطعه صوت خلفه لأحد الفرسان، أشيب الشعر واقفًا بالقرب منه:

- لا تنطق أبدًا بهذا الاسم! ألا يكفيك أنك أتيت هنا لتزعج خلوتنا التقية؟

التفت إليه الشاب قائلًا: أوه، سامحوني! إنني سعيد جدًا أن أكون هنا في وسطكم! آه لو تعرفون كم بحثت عنكم!

ـ لماذا؟

ـ لأنني ـ كان الشغف الآن يعلن سره أقوى كثيرًا من خوفه من أن يرتكب خطية تدنيس المقدسات ـ لأنني ابنكم!

لم يتأثر الفارس المسن: هنا لا نعرف آباء ولا أبناء. بعد لحظة من الصمت وقال:

ـ مَنْ ينضم إلى الجماعة المقدسة يهجر كل الروابط العائلية الأرضية.

وشعر توريسموندو بالإحباط أكثر من شعوره بالرفض؛ ربما كان قد توقع رفضًا واستياء من قِبل آبائه الأفاضل، وكان سيواجههما بأن يستعرض لهم الأدلة، أو أن يذكرهم بروابط الدم؛ ولكن تلك الإجابة الهادئة بهذه الطريقة، التي لا تنكر احتمال الوقائع، ولكنها تستبعد أية مناقشة كمسألة مبدأ، كانت مثيرة للإحباط.

وحاول أن يصر قائلاً: لا أمل سوى أن يتم الاعتراف بي ابنًا لهذا النظام المقدس، الذي تجاهه أشعر بإعجاب شديد!

قال الشيخ: إذا كنت تحب نظامنا بهذه الطريقة فلا يجب أن تكون لديك أمنية أكثر من أن تنضم إليه.

صاح توريسموندو الذي جذبه على الفور الاقتراح الجديد: وهل ترى أن هذا سيكون ممكنًا؟

ـ عندما تستحق ذلك.

ـ وماذا يجب أن أفعل؟

ـ أن تتنقى بالتدريج من كل شهوة، وأن تترك نفسك ليمتلكك حب الجرال.

ـ أوه، لماذا تنطق إذن بالاسم؟

ـ نحن الفرسان نستطيع ذلك؛ أما أنتم أيها العلمانيون فلا.

ـ ولكن قل لي، لماذا يسكت الجميع وأنت فقط من يتكلم؟

ـ إنه دورى في واجب العلاقات مع العلمانيين، نظرًا لأن الكلمات غير نقية، يفضل الفرسان الامتناع عنها، إلا فقط في حالة أن يتحدث الجرال على شفتيهم.

ـ قل لى لماذا يجب أن أفعل لكي أبدأ؟

ـ هل ترى ورقة الإسفندان تلك؟ استقرت عليها قطرة ندى. عليك أن تمكث ثابتًا، لا تتحرك وحدق في تلك القطرة على تلك الورقة، توحد معها، انسَ كل شيء في العالم في هذه القطرة حتى تشعر بأنك فقدت ذاتك وتغزوك القوة اللانهائية للكأس المقدسة.

وأوقفه هناك. أخذ توريسموندو يحدق في القطرة، ويحدق، وشعر بالرغبة في أن يفكر في أحواله، رأى عنكبوتًا تنزل على الورقة، أخذ ينظر إلى العنكبوت، ويعيد النظر إليها، ثم عاد مرة أخرى لينظر إلى القطرة، حرك قدمًا كانت قد تيبست، أف!! كان يشعر بالملل. وحوله كان يظهر ويختفى في الغابة فرسان يتحركون ببطء، أفواههم مفغورة وعيونهم جاحظة، يصحبهم البجع الذى يربتون على ريشه الناعم من حين إلى آخر.

وفجأة كان بعض منهم يفرد ذراعيه ويجرى مسافة صغيرة وهو يصدر صرخة متنهدة.

لم يستطع توريسموندو أن يمنع نفسه من أن يسأل الشيخ، الذى كان عاد وظهر في الجوار: ولكن ماذا يحدث لأولئك هناك؟

قال الشيخ: إنها النشوى، أى شيء لن تعرفه أنت أبدًا ما دمت شاردًا وفضوليًا بهذه الطريقة. إن أولئك الإخوة قد وصلوا أخيرًا إلى الاتصال التام بكل شيء.

سأل الشاب: وأولئك الآخرون؟

كان بعض الفرسان يتكاسلون في مشيتهم، كأنهم مصابون برعشات رقيقة، وكانوا يغيرون سيماء وجوههم.

ـ هؤلاء ما زالوا في المرحلة الانتقالية، قبل الشعور بأنهم شيء واحد مع الشمس والنجوم، يشعر المبتدئ أن بداخله فقط الأشياء الأكثر قربًا، ولكن بطريقة مكثفة جدًا. وهذا الشعور، خاصة لدى الشباب، يتسبب في تأثير معين. إن جريان النهر، وحركة الأغصان ونمو نباتات عش الغراب من تحت الأرض تنقل إلى إخواننا أولئك نوعًا من الشعور المحبب إلى النفس والبطيء جدًا.

ـ ألا يتعبون على المدى الطويل؟

ـ إنهم يصلون بالتدريج إلى الدرجات العليا، التي فيها لا تتملكهم فقط الاختلاجات القريبة منهم، ولكن الروح العظيمة للسماوات، ورويدًا رويدًا ينفصلون عن المشاعر الحسية.

ـ وهل هذا يحدث للجميع؟

ـ للقلة القليلة. وبطريقة كاملة، هذا يحدث لواحد فقط من بيننا وهو المختار، ملك الجرال.

كانا قد وصلا إلى ساحة فيها عدد كبير من الفرسان يتدربون بالأسلحة أمام مجموعة تجلس أسفل مظلة. وتحت تلك المظلة كان يجلس، أو الأفضل أن نقول، كان منطويًا على نفسه، بلا حراك، شخص ما كان يبدو كالمومياء يرتدي هو أيضًا زي الجرال، ولكنه كان يرتدى زيًا أكثر صخبًا. كان قد فتح عينيه، بل جحظها في ذلك الوجه الجاف كأنه ثمرة الكستناء.

سأل الشاب: هل هو حي؟

ـ إنه حي، ولكنه مأخوذ جدًا بحب الكأس إلى حد أنه لم يعد بحاجة إلى تناول الطعام ولا إلى أن يتحرك، ولا أن يقضي حاجته، ولا حتى أن يتنفس. فهو لا يرى ولا يشعر، لا أحد يعرف أفكاره؛ فهي بالتأكيد تتأمل مجرى الكواكب البعيدة.

ـ ولكن لماذا يدعونه يحضر تدريبًا عسكريًا إذا كان لا يرى؟

ـ إن هذا في طقوس الجرال.

كان الفرسان يتدربون فيما بينهم في هجوم مدروس. كانوا يحركون السيوف وهم ينظرون إلى الفراغ، كانت خطواتهم قاسية وفجائية كأنه لا يمكنهم أبدًا التكهن بما سيفعلونه في اللحظة التالية. إلا أنهم لم يخطئوا أي هدف.

ـ ولكن كيف يمكنهم المبارزة وهم يبدون نائمين هكذا؟

ـ إنها قوة الجرال التي بداخلنا التي تحرك سيوفنا. إن حب الكون يمكن أن يتخذ شكل الغضب البشع، وأن يدفعنا إلى أن نغرس سيوفنا في قلوب أعدائنا بحب. إن نظامنا لا يمكن هزيمته في الحرب لأننا نحارب من دون أن نبذل أي جهد، ولا أي اختيار، ولأننا نترك الغضب المقدس ينطلق من خلال أجسامنا.

ـ وهل هذا ينجح دائمًا؟

ـ أجل، لمن فقد كل آثار الإرادة البشرية، ويترك فقط لقوة الجرال أن تحركه في كل إيماءة صغيرة يقوم بها.

ـ في كل ايماءة صغيرة؟ حتى الآن وأنت تسير؟

كان الشيخ يسير كأنه النائم: بالتأكيد. لست أنا الذي أحرّك قدمي؛ إنني أتركها لتتحرك، حاول، إن كل شيء يبدأ من هنا. حاول توريسموندو ولكن أولاً لم يكن هناك أي أمل في أن ينجح في ذلك، ثانيًا، لم يكن يشعر بأية رغبة في ذلك.

كانت الغابة هناك، بأشجارها الخضراء وأغصانها، كل شيء يتحرك فيها ويتذبذب، كان يشعر بالرغبة في أن يجرى، وأن يتحرر، أن يفزع الحيوانات المتوحشة، أن يواجه هذه الظلال، هذا البؤس، تلك الطبيعة الغريبة، ويفرض عليها نفسه وقوته، تعبه وشجاعته. ولكن كان عليه أن يبقى هناك يتمايل كأنه عاجز.

حذره الشيخ: اترك نفسك للأشياء تملكك، اترك نفسك ليمتلكك كل شيء.

انفجر توريسموندو: ولكن في الحقيقة ما يعجبني أن أفعله هو أن أمتلك الأشياء، وليس أن تمتلكني الأشياء.

عقد الشيخ مرفقيه على وجهه بحيث سد أذنيه وعينيه في الوقت نفسه: ما زال لديك مسيرة يجب اجتيازها أيها الفتى.

مكث توريسموندو في معسكر الجرال. أخذ يجبر نفسه على التعلم، على أن يقلد آباءه أو إخوته (لم يعد يعرف ماذا يطلق عليهم)، كان يحاول أن يخنق أية حركة لروحه تبدو له فردية جداً، ويحاول أن ينصهر في العلاقة مع الحب اللانهائي للجرال، كان يقظًا في إدراك أي اشارة من تلك الأحاسيس التي لا يمكن وصفها والتي كانت تسبب شعور النشوة لدى الفرسان.

ولكن كانت الأيام تمر ولم يتقدم خطوة واحدة في طريق التطهر.

وكان كل شيء يثير إعجابهم يضايقه، تلك الأصوات، تلك الموسيقى، وكونهم واقفين بهذه الطريقة على استعداد دائم لإصدار تلك الخجلات. وبالأخص ذلك الاقتراب المستمر مع الإخوة، وهم يرتدون ملابسهم بتلك الطريقة، نصف عراة، يضعون التروس والخوذات الذهبية، بأجسامهم الناصعة البياض. بعض منهم مسنون وبعضهم الآخر شبّان حساسون، دقيقون، غيورون ويمكن إثارتهم، كل هذا كان يشعره أكثر بالمضايقة، وبحجة أنهم يتركون الكأس تحركهم كانوا يتركون أنفسهم لما يريحهم من ملابس ويتظاهرون بأنهم دائمًا أنقياء.

وكانت فكرة أنه يمكنه أن يجول هكذا بعينيه محدقتين في الفضاء حتى دون أن يهتم بما يفعلون، وأن ينسى كل شيء على الفور، كانت غير محتملة بالنسبة إليه.

وجاء يوم جمع الجزية. كان يجب على كل القرى حول الغابة أن تقدم في مواعيد محددة إلى فرسان الجرال عددًا معينًا من أنواع الجبن وسلال الجزر، وأجولة مليئة بالذرة وجرار مليئة باللبن.

تقدم مندوب عن الفلاحين وقال: نرغب في أن نقول إن هذا العام، وفي جميع أراضي كورفالديا، كان الحصاد جدبًا. ونحن لا ندري كيف نسد جوع أبنائنا؛ فلقد أصابت المجاعة الغنى منا والفقير، أيها الفرسان الأتقياء، نقف الآن أمامكم بخضوع لنسألكم أن تعفونا من الجزية هذه المرة.

كان ملك الجرال، أسفل المظلة، صامتًا وساكنًا كالمعتاد. وفي هذه اللحظة، حرك ببطء يده المعقودة على بطنه ورفعها نحو السماء (كانت أظفاره طويلة جدًا) وقال فمه: إيييييييييييه...

عند سماع هذا الصوت تقدم الفرسان ورماحهم مصوبة تجاه أهل كورفالديا المساكين. أخذ أولئك يصرخون: النجدة! لندافع عن أنفسنا! لنسرع ونسلح أنفسنا بالفئوس والمجاريف!

ثم تفرقوا جميعًا...

سار الفرسان، وعيونهم شاخصة نحو السماء، بمجرد سماع أصوات البوق والطبول، تقدموا تجاه قرى كورفالديا في المساء. ومن بين صفوف الأعشاب والسياج ظهر أهل القرية مسلحين بمذارٍ ومناجل في محاولة لاعتراض تقدمهم. ولكن لم يستطيعوا الكثير في مواجهة رماح الفرسان عديمة الرحمة. فبعد أن فرقوا صفوف المدافعين، ألقوا بأنفسهم بجيادهم الحربية الثقيلة على الأكواخ الحجرية، وتلك المصنوعة من القش والطمي هادمين إياها تحت حدوات الجياد، وهم يصمون آذانهم عن صراخ النساء والشيوخ والأطفال. وكان هناك فرسان آخرون يمسكون بمشاعل، وأخذوا يشعلون النيران في الأسقف، وفي مستودعات التبن، والاسطبلات، وفي مخازن القمح البائسة، حتى تحولت كل القرى إلى محرقة وصراخ.

اضطرب توريسموندو وهو يندفع بجري الفرسان، وأخذ يصرخ في الشيخ وهو يتبعه، نظرًا إلى أنه الوحيد الذي كان يمكنه التحدث معه: ولكن قل لي، لماذا؟ إذن ليس حقيقيًا أنكم مأخوذون بحب كل شيء! هيه! احترس ستدهس هذه العجوز! كيف يمكن أن يكون لكم قلب وترتكبون كل هذه الجرائم؟ النجدة! ستشعل النيران في فراش هذا الصغير! ما هذا الذي تفعلونه؟؟

حذره الشيخ قائلًا: أنت بالتأكيد لا ترغب في التشكيك في خطط الجرال أيها المبتدئ؟ لسنا نحن الذين نقوم بذلك، إنه الجرال المقدس يعمل بداخلنا! اترك نفسك للحب الغاضب!

ولكن توريسموندو كان قد ترك سرجه واندفع لينقذ أمًا، ويعيد إليها طفلها الذي سقط من بين يديها.

وأخذ شيخ يصرخ: لا! لن تأخذوا مني كل المحصول، لقد تعبت كثيرًا لأحصل عليه!

كان توريسموندو يقف إلى جواره: أترك جواله أيها اللص! . وهجم على أحد الفرسان وهو ينتزع منه ما اغتصبه. قال بعض أولئك البؤساء الذين كانوا ما زالوا يحاولون بالمذاري والسكاكين والفئوس الدفاع عن أنفسهم من خلف الأسوار: ليباركك الله! انضم إلينا!

صرخ عليهم توريسموندو: نظموا أنفسكم في نصف دائرة، لنلقيهم أرضًا جميعًا! ووضع نفسه على رأس جيش الفلاحين الكورفالدي. وفي أثناء طرده الفرسان من منازل الفلاحين وجد نفسه وجهًا لوجه مع الشيخ واثنين آخرين مسلحين بالمشاعل: إنه خائن لنمسك به!

واشتعلت معركة كبيرة، أخذ الكورفالديون يهاجمونهم بأسياخ والنساء والأطفال يقذفونهم بالحجارة. وفجأة سُمع صوت البوق: انسحاب!

فقد انسحب الفرسان من أكثر من موقع أمام انتفاضة أهل كورفالديا وتركوا القرية. وانسحب أيضًا الحشد المجتمع بالقرب من توريسموندو، حيث صرخ المسن: هيا أيها الإخوة لنترك الجرال يقودنا حيث يشاء! قالت مجموعة أخرى وهي تغير اتجاهها: فلينتصر الجرال!

التف القرويون حول توريسموندو : يعيش! لقد أنقذتنا! إنك فارس ولكنك كريم! أخيرًا عثرنا على فارس حقيقي! امكث معنا! قل لنا ماذا تريد وسنعطيه لك!

تلعثم توريسموندو: الآن... ما أريده... لم أعد أعرف...

ـ نحن أيضًا لم نكن نعرف شيئًا، لم نكن نعرف حتى إننا بشر قبل هذه المعركة... والآن يبدو لنا أننا نستطيع.. وأننا نرغب.. وأننا يجب أن نفعل شيئًا... كل شيء... حتى إن كان ذلك قاسيًا... ثم التفتوا ليبكوا على موتاهم.

ـ لا أستطيع أن أمكث معكم... لا أعرف من أنا... وداعًا...

وركض بحصانه مبتعدًا. وأخذ السكان يصيحون: عد !

لكنه كان قد ابتعد بالفعل عن القرية، وعن غابة الجرال، وعن كورفالديا كلها.

وعاد مرة أخرى ليجول بين البلاد. كان قد احتقر قبل هذه اللحظة كل شرف وكل متعة، هائمًا يبحث عن النموذج المثالي للجماعة المقدسة لفرسان الجرال. والآن بعد أن تبخر هذا النموذج، تُرى ما الهدف الذي يمكنه أن يهدئ من قلقه؟ كان يتغذى على ثمار الفاكهة البرية في الغابات، أو على حساء من الفاصوليا تقدمه له الأديرة التي كان يمر بها على الطريق، أو على القنافذ البحرية في السواحل الصخرية.

وأخيرًا شعر بأن الرغبة، التي اجتاحته وحركته تجاه العالم، وتجاه الأماكن المغطاة بالخضراوت المرنة، والأماكن التي اجتازها في الرياح

المنخفضة أو العاصفة، وفي أيام أخرى لا شمس فيها، قد هدأت بمجرد أن وقعت عيناه على تلك الرموش السوداء الطويلة المنسدلة على الخدين الممتلئين والشاحبين، ونعومة ذلك الجسم الممتلئ، واليد الموضوعة على النهدين الفائضين، والشعر الناعم، والشفتين والفخذين، وأنفاسها.

انحنى وأخذ ينظر إليها عندما فتحت عينيها وقالت بهدوء:

ـ لا تؤذني، عمّ تبحث في تلك النتوء الصخرية؟

ـ كنت أبحث عن شيء كان ينقصني دائمًا، والآن فقط وقد رأيتك، عرفت ما هو. كيف وصلت إلى هذا الشاطئ؟

ـ كنت مجبرة على الزواج، مع أنني راهبة، بأحد المغاربة، وهو زواج لم يتم قط نظرًا إلى أنني الزوجة رقم ثلاثمائة وخمس وستين، وقد حضرت إلى هنا بعد أن أُنقذت بالسلاح المسيحي، إلا أنني وقعت ضحية غرق السفينة في رحلة العودة، كما حدث لي في الذهاب عندما اختطفني قراصنة متوحشون.

ـ فهمت، هل أنت وحدك؟

ـ ذهب منقذي إلى أسفل، حيث مناطق الإمبراطورية ليتعجل ـ كما فهمت ـ بعض الإجراءات.

ـ أريد أن أقدم لك حماية سيفي، ولكنني أخشى أن الشعور الذي اشتعل بداخلي عند رؤيتك يمكن أن يتحول إلى أشياء ربما تعدينها أنت غير شريفة.

ـ آه، لا تقلق من ذلك، أتعرف؟ لقد تعرضت للكثير، إلا أنه في كل مرة عندما كانت تحين اللحظة الحاسمة، يصل المنقذ. وهو الفارس نفسه في كل مرة.

ـ وهل سيصل هذه المرة أيضًا؟

ـ لا أدري، ولكن ليس بالضرورة.

ـ ما اسمك؟

ـ أزيرا، أو الأخت بالميرا، يتوقف ذلك إذا كنت في حرملك السلطان أم في الدير.

ـ أزيرا، يبدو لي أنني أحببتك منذ الأزل...وأنني غرقت بالفعل في حبك....

- XI -

كان شارلمان يركض على سواحل بريطانيا.

ـ الآن سنرى، الآن سنرى يا أجيلولفو داي جويلدينفيرني، فلتهدأ. إذا كان ما تقوله لي حقيقيًا، وإذا كانت تلك المرأة ما زالت عذراء كما كانت منذ خمسة عشر عامًا، فلا يمكن قول أى شيء. سيكون من حقك أن تظل مسلحًا كفارس، وسيكون على هذا الشاب توضيح ما قاله لنا. وللتأكد من ذلك، أرسلت في طلب امرأة قروية خبيرة بأمور النساء؛ فنحن الجنود ليست لدينا الخبرة في مثل هذه الأشياء...

قالت العجوز الموضوعة على حصان جوردولو، بطريقة غر مفهومة:

ـ نعم، نعم يا مولاي

سيتم كل شيء بدقة، حتى إن وُلد توءم...

فقد كانت صماء ولم تكن قد فهمت بعد عن أي شيء يتحدثان...

في البداية دخل الكهف ضابطان من الجيش يحملان المشاعل. ثم عادا مذهولين: سيدي! العذراء ترقد بين ذراعيّ ضابط شاب.

وتم جذب الحبيبين إلى حضرة الإمبراطور.

صرخ أجيلولفو: أنت يا سوفرونيا!

ورفع شارلمان وجه الشاب: توريسموندو!

قفز توريسموندو تجاه سوفرونيا: أنت سوفرونيا؟ آه، أمي!

سأل الإمبراطور: هل تعرفين هذا الشاب يا سوفرونيا؟

أحنت المرأة رأسها، كانت شاحبة، قالت بصوت خافت: إذا كان هو توريسموندو فقد ربيته بنفسي.

قفز توريسموندو إلى سرجه: لقد ارتكبت خطية مميتة، لن تروني بعد الآن أبداً! وغمز حصانه وانطلق تجاه الغابة على الفور ناحية اليمين...وغمز أجيلولفو حصانه هو الآخر قائلا: ولن تروني أنا أيضًا، لم يعد لي اسم، وانطلق إلى الغابة، تجاه الشمال.

مكث الجميع في ذهول. وأخفت سوفرونيا وجهها بيديها. وسُمع صوت ركض حصان من اليمين. إنه توريسموندو الذي خرج من الغابة بسرعة شديدة وصرخ: ولكن كيف؟ إذا كانت ما زالت عذراء حتى لحظات قليلة؟ كيف لم أتمكن من التفكير في ذلك على الفور؟ كانت عذراء! لا يمكن أن تكون أمي.

قال شارل الأعظم: هل يمكن أن تشرحي لي.

قالت سوفرونيا: فى الحقيقة، إن توريسموندو ليس ابني، ولكنه أخي، أو الأفضل أن نقول إنه أخ غير شرعي، إن ملكة اسكتلندا أمنا، نظراً إلى أن أبي مكث في الحرب لمدة سنة، أنجبته بعد لقاء غير شرعي - على ما يبدو - مع الجماعة المقدسة لفرسان الجرال. وبمجرد أن أعلن الملك عن عودته، قامت تلك المخلوقة الشريرة (وأنا مجبرة على أن أقول هذا عن أمنا) بحجة أنها ستأخذني لنزهة مع أخي الصغير، بتركي ضائعة في الغابات. وخدعت زوجها الذي لحق بها خدعة بشعة. قالت له إنني أنا،

ذات الأعوام الثلاثة عشر، هربت لأنجب طفلًا بلا نسب. ولم أخن أنا قط سر أمنا. وكان يدفعني إلى ذلك احترام بنوي الذي حبسني في سوء الفهم هذا. وعشت في الأدغال مع أخي الرضيع، وكانت بالنسبة إليّ أعوام حرية وسعادة أيضًا مقارنة بما كان ينتظرني في الدير، حيث أُجبرت على الذهاب هناك من دوقة كورنوفاليا. ولم أكن قد عرفت رجلاً حتى هذا الصباح، وأنا عمري الآن ثلاثة وثلاثون عامًا، ويا لشقائي، وتحول أول لقاء لي مع رجل إلى خطية مميتة.

قال لها شارلمان مهدئًا: لنرَ الآن بهدوء ماذا يحدث، فزنا المحارم دائمًا موجود بين الأخ والأخت غير الأشقاء، ولكنه ليس من أخطر الحالات.

صاح توريسموندو وقد ابتهج وجهه: لا توجد خطايا، يا مولاي المعظم! افرحي يا سوفرونيا! في أثناء بحثي عن أصولي عرفت سرًا كنت أتمنى أن أحفظه إلى الأبد؛ أن تلك التي كنت أعتقد أنها أمي، أي أنت يا سوفرونيا، ولدت، ليس من ملكة إسكتلندا، ولكنها كانت ابنة الملك من زوجة أحد رؤساء الحرس. وجعل الملك زوجته تتبناكِ. زوجته التى عرفت متك الآن أنها أمي، وهي لم تكن سوى زوجة أبيك. والآن قد فهمت كيف أنها قد أُجبرت من الملك على التظاهر بأنها أمك ضد رغبتها، كانت تتحين الفرص لتتخلص منك، وفعلت ذلك بأن نسبت ثمرة خطيئتها العابرة، أي أنا. فأنت ابنة ملك اسكتلندا وإحدى الفلاحات، وأنا ابن ملكة إسكتلندا وجماعة الجرال، وليس بيننا أية صلة دم، ولكن فقط صلة العشق الذي نشأ بيننا بحرية هنا، ومع أنه حدث منذ قليل فإنني أتمنى بشغف أن آخذك بين ذراعي مرة أخرى...

قال شارلمان وهو يفرك يديه: يبدو لي أن كل شيء انتهى على أفضل حال، ولكن يجب أن نسرع في الوصول إلى ذلك الفارس الماهر أجيلولفو، ونؤكد له أنه لا خطورة الآن على اسمه ولقبه.

قال أحد الفرسان وهو يتقدم إلى الأمام: سأذهب أنا يا مولاي! وكان رامبالدو.

دخل الغابة وأخذ يصيح: أيها الفارس! أيها الفارس أجيلولفو! يا فارس داي جويلديفرني! يا أجيلولفو إيمو بيرتراندينو داي جويلديفرني وديللي التري في كوربينتراز وسورا، يا فارس سيليمبيا شيتريوري وفيز! كل شيء على ما يرام! عد!

ولم يكن يجيبه شيء سوى صدى ندائه.

أخذ رامبالدو يجول في الغابة مدقًا تلو الآخر، ومن المدقات دخل الأدغال ومجاري المياه، وهو ينادي، ويسترق السمع، باحثًا عن إشارة، أو عن أي أثر، وإذ به يجد نفسه أمام آثار حدوات حصان. فعند موقع ما بدت مغروسة بوضوح، وكان الحيوان قد توقف في هذا المكان. ومن هناك أخذت آثار الحدوات تخف، كأن الحصان تُرك ليجري بعيدًا، ولكن من تلك النقطة نفسها ظهرت آثار أخرى، آثار خطوات لحذاء حديدي، وتبع رامبالدو تلك الخطوات.

حبس رامبالدو أنفاسه، فقد وصل إلى منطقة أشجار وعند قدم شجرة بلوط وجد على الأرض خوذة مقلوبة متقزحة اللون ودرعًا بيضاء، الفخذين والذراعين والوسط، أي كل أجزاء درع أجيلولفو، بعضها كان موضوعًا كأنه كان ينوي تشكيل هرم منظم، والأجزاء الأخرى مبعثرة على الأرض بطريقة عشوائية. وكان معلقًا على مقبض السيف ورقة مكتوب عليها: اترك تلك الدرع للفارس رامبالدو دي روسيليوني. وفي أسفل كان هناك نصف شيء مكتوب... وكأنه توقيع بدأ ثم قُطع على الفور.

- أيها الفارس... أخذ رامبالذو ينادي وهو يوجه كلامه إلى الخوذة، تجاه الدرع، تجاه شجرة البلوط، تجاه السماء.

ـ أيها الفارس، لتستعد مرة أخرى درعك! إن لقبك في الجيش وفي شرف فرنسا لا يمكن المساس به!

وحاول أن يجمع الدرع مرة أخرى، وأن يجعلها تقف على قدميها واستمر في الصراخ: أيها الفارس، لم يعد أحد يستطيع إنكار ذلك بعد الآن!

لم يكن هناك أي صوت يجيبه.

لم تمكث الدرع واقفة، وتدحرجت الخوذة على الأرض.

ـ أيها الفارس، لقد استطعت أن تقاوم زمنًا طويلًا بقوة إرادتك فقط، استطعت أن تفعل كل شيء كأنك موجود؛ لماذا تستسلم هكذا فجأة؟

ولكنه لم يعد يعرف إلى أي مكان يوجه حديثه؛ كانت الدرع فارغة، ليس فارغة كما كان في البداية، ولكن فارغة أيضًا من ذلك الشيء الذي كان يُدعى الفارس أجيلولفو الذي قد تبخر الآن كأنه نقطة في وسط البحر.

والآن نزع رامبالدو درعه، ووضع الدرع البيضاء، ووضع خوذة أجيلولفو، وقبض بيديه على الترس والسيف، وقفز فوق صهوة جواده. مسلحًا بهذه الطريقة مثُل في حضرة الإمبراطور وأتباعه.

ـ آه يا أجيلولفو لقد عدت، كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟

ولكن من الخوذة أجابه صوت آخر: أنا لست أجيلولفو يا مولاي!

رفع غطاء الخوذة وظهر وجه رامبالدو: لم يبق شيء من فارس داي جويلديفرنى سوى درعه البيضاء، وتلك الورقة التي تُملكني الدرع. والآن أنا أتشوق للساعة التي ألقي فيها بنفسي في خضم المعركة.

أخذت الطبول تقرع أصوات الإنذار؛ لقد عبر أسطول من المراكب وعلى متنها جيش عربي إلى بريطانيا. وأسرع الجيش الفرنسي للتدخل.

قال الملك شارلمان: تحققت أمنيتك، ها قد حانت ساعة المعركة، لتشرف إذن الدرع التي ترتديها. فبالرغم من طباعها الصعبة فإنه كان يعرف كيف يشرفها!

واجه جيش الفرنجة الغزاة، وفتح ثغرة فى جبهة العرب وكان الشاب رامبالدو هو أول من اقتحمها. أخذ يهاجم، ويدافع، يهاجم من ناحية ويصد من الأخرى. وسقط كثير من الأعداء أرضًا، وقد أصاب رامبالدو كثيرًا منهم برمحه وغرسه فيهم واحدًا تلو الآخر. وبالفعل نكست أعلام الغزاة، فبعد أن هزمتهم أسلحة الفرنجة، سارع المهزومون بالفرار فيما عدا أولئك الذين قتلوا وأغرقت دماؤهم أرض بريطانيا.

خرج رامبالدو من المعركة منتصرًا؛ ولكن الدرع البيضاء، الدرع التي لا يلطخها شيء، درع أجيلولفو، أصبحت الآن ملطخة بالطمي وتفوح منها رائحة دماء الأعداء، مغطاة بالكدمات، وبقايا خلايا النحل، والخدشات والتمزقات، ولم يعد في أعلى خوذته أي ريش، بل أصبحت الخوذة معوجة، وخزق الترس تمامًا في المنتصف في وسط الشعار الغامض. الآن يشعر الشاب بأنه درعه، درعه هو رامبالدو دي روسينيولي؛ ابتعد عنه الآن ذلك الشعور بالمضايقة الذي راوده عندما ارتداها أول مرة؛ الآن يرتديها كأنها قفاز.

أخذ يركض وحيدًا على ظهر أحد الهضاب. وسمع صوتًا حادًا يتردد من أعماق الوادي: أنت هناك فوق! أجيلولفو!

كان هناك فارس يجري نحوه؛ وفوق درعه يرتدي رداء باللون الأزرق الزهري. إنها برادامانتي تتبعه - أخيرًا وجدتك أيها الفارس الأبيض!

أراد هو أن يصرخ ويقول لها على الفور: "برادامانتي، إنني لست أجيلولفو. أنا رامبالدو"، إلا أنه فكر أنه ربما يكون من الأفضل أن يقول لها ذلك عن قرب، واستدار بحصانه ليلحق بها.

صاحت برادامانتي: أخيرًا أنت الذي تجري خلفي، أيها الفارس الذي لا يمكن إداركه! آه، آه، وأخيرًا أستمتع برؤيتك وأنت تجري مقتربًا مني، أنت أيضًا، الرجل الوحيد الذي لا يقوم بشيء بمحض المصادفة، وليست تصرفاته مرتجلة، مثل أولئك الذين ينتمون إلى قطيع الكلاب الذي يتبعني دائمًا!

وأثناء قولها هذا، استدارت بجوادها في محاولة للهرب منه، إلا أنها كانت تستدير لتنظر إلى الخلف لتتأكد أنه هو أيضًا يجاريها لعبها ويلحق بها.

كان رامبالدو متشوقًا إلى أن يقول لها: "ألا تدركين أنني أنا أيضًا واحد من هؤلاء الذين يتحركون بحماقة، وأن كل تصرف لي يفضح رغباتي، وعدم رضاي وقلقي؟ ولكنني أنا أيضًا لا أرغب في شيء سوى أن أصبح شخصًا يعرف ما يريده!"؛ وليقول لها ذلك أخذ يركض وهو يتبعها وهي تضحك وتقول: إن هذا هو اليوم الذي حلمت به دائمًا!

ابتعدت عن ناظريه. وكان هناك وادٍ مليء بالأعشاب ومنعزل، وجد جوادها وقد ربطته في إحدى أشجار التوت. كان كل شيء يشبه تلك المرة الأولى التي تبعها فيها ولم يكن يشك في كونها امرأة. ترجل رامبالدو عن حصانه، وها هو يراها، راقدة على أحد منحدرات الطحالب. كانت قد نزعت درعها، وكانت ترتدي رداء قصيرًا بلون الياقوت، وفتحت ذراعيها له وهي راقدة.

تقدم رامبالدو نحوها بالدرع البيضاء. هذه هي اللحظة المواتية ليقول لها: أنا لست أجيلولفو، والدرع التي أحببتها، انظري الآن إليه وهو يشعر بثقل جسم ما بداخله، جسم ما زال شابًا ورشيقًا مثل جسمي. ألا ترين كيف فقدت هذه الدرع بياضها الناصع وأصبحت زيًا بداخله يخوض شخص حقيقي الحرب، أصبح درعًا معرضة لكل الضربات، أصبحت سلاحًا صبورًا ومفيدًا؟"

أراد أن يقول لها كل هذا، إلا أنه وقف هناك ويداه ترتعشان، وتقدم نحوها بخطوات مترددة. ربما كان أفضل شيء هو أن يكشف نفسه، أن يخلع الدرع، وأن يظهر أمامها بوصفه رامبالدو، الآن، مثلًا، وهي تغمض عينيها وتبتسم ابتسامة الانتظار. نزع الشاب الدرع بشوق؛ الآن برادامانتي ستتعرف إليه بمجرد أن تفتح عينيها... لا؛ فقد وضعت يدها على وجهها كأنها لا تريد أن تربك بنظرتها الاقتراب غير المرئي للفارس غير الموجود. وألقى رامبالدو بنفسه فوقها.

صاحت برادامانتي وعيناها مغمضتان: أوه، أجل، كنت واثقة بذلك! كنت واثقة دائمًا أن هذا يمكن أن يحدث! والتصقت به.

وبفعل حمى الحب التى كانت متساوية لدى كل منهما اتحد كل منهما بالآخر.

- آه، أجل، أجل... كنت واثقة!

والآن وقد تم هذا أيضًا؛ كانت اللحظة التي سينظر كل منهما في عيني الآخر.

فكر رامبالدو بسرعة في لحظة فخر وأمل: "الآن ستراني، وستدرك كل شيء، ستدرك كم كان ما حدث حقيقيًا وجميلاً، وهكذا ستحبني إلى الأبد!"

فتحت برادامانتي عينيها: آه، أنت!

نهضت على الفور ودفعت رامبالدو إلى الخلف. وصرخت بصوت مليء بالغضب، وعيناها تذرفان الدموع: أنت! أيها المحتال!

واستلّت سيفها وهي واقفة ورفعته على رامبالدو وأخذت تضربه، ولكن بوضع مستعرض، على رأسه حتى أفقدته وعيه، وكان كل ما استطاع قوله لها وهو يرفع يديه غير المسلحتين ربما ليدافع عن نفسه، وربما أيضًا

ليحتضنها: ولكن لتعترفى... ألم يكن جميلاً...؟. ثم فقد وعيه، ولم يصل إليه إلا أصوات قفزات الجواد المضطربة وهي ترحل.

إذا كان العاشق الذي يملأ بالقبلات من لا يعرف مذاقها تعسًا، فأتعس منه آلاف المرات ذلك الذي ذاق لتوه ذلك المذاق ثم رُفض. أكمل رامبالدو حياة الضابط الجسور. فحيث توجد أكثر الحشود، كان يتقدم برمحه. وإذا كان في أثناء مبارزته يرى فجأة لونًا زهريًا يجري وهو يصرخ: برادامانتي!. ولكن بلا فائدة. الوحيد الذي كان يمكنه أن يتقاسم معه آلامه قد اختفى. وكان وهو يجول في المعسكر، يقفز بمجرد أن يرى درعًا مستندة بجانبه أو يلحظ الارتفاع المفاجئ لذراع الدرع . وكان يتساءل لأن حركات الدروع تذكره بأجيلولفو: وإذا لم يكن الفارس قد تبخر، إذا كان قد وجد درعًا أخرى؟!

كان رامبالدو يقترب ويقول: أرجو ألا تشعر بالإهانة أيها الزميل، ولكنني أريدك أن ترفع غطاء خوذتك.

وكان يتمنى في كل مرة أن يجد نفسه أمام فجوة فارغة؛ ولكنه كان يجد نفسه في كل مرة أمام أنف ينبت أسفله شاربان كثيفان، فكان يتمتم: اعذرني. ويجري مبتعدًا. وكان هناك شخص آخر يبحث عن أجيلولفو، كان جوردولو، الذي كان بمجرد أن يرى إناء فارغًا، أو أنبوب مدخنة، أو حوض استحمام يتوقف أمامها ويصيح: سيدي! أمرك يا سيدي!

كان جالسًا فوق أحد المراعي على حافة أحد الطرق وهو يتحدث حديثًا طويلاً في فم إحدى القوارير عندما قاطعه صوت ما: عمّ تبحث هناك بالداخل يا جوردولو؟

كان توريسموندو، الذي بعد أن احتفل بصخب بزواجه بسوفرونيا بحضور شارلمان، كان يمتطي جواده مع العروس وحاشية كبيرة متجهًا إلى كورفالديا، التي كان الإمبراطور قد عينه "كونت" عليها. قال جوردولو: ابحث عن سيدي.

ـ بداخل تلك القارورة؟

ـ إن سيدي هو شخص غير موجود؛ إذن يمكن ألا يكون موجودًا بداخل قارورة مثلما الحال بداخل الدرع.

ـ ولكن سيدك قد تبخر في الهواء!

ـ إذن فأنا حامل ترس الهواء؟

ـ ستكون حامل ترسي إذا تبعتني.

وصلوا إلى كورفالديا، ولم يكن من الممكن تعرّفها، فلقد تغيرت كثيرًا، فبدلاً من القرى أصبحت هناك مدن ذات مبانٍ من الحجارة وطواحين وقنوات.

ـ لقد عدت أيها الشعب الطيب لأمكث معكم.

ـ يعيش! رائع! يعيش الفارس ! تعيش العروس!

ـ انتظروا لتعبروا عن سعادتكم بالخبر الذي سأقوله لكم: لقد منحني الإمبراطور شارلمان ، الذي ستنحنون من الآن فصاعدًا عند سماع اسمه المقدس، لقب كونت كورفالديا!

ـ آه... ولكن... شارلمان؟... حقًا...

ـ ألا تفهمون؟ الآن أصبح لكم كونت! سأدافع عنكم مرة أخرى ضد جشع فرسان الجرال!

ـ آه، لقد طردنا أولئك منذ فترة من جميع أراضي كورفالديا!

ـ في الحقيقة، منذ فترة طويلة كنا نطيعهم دائمًا.. ولكننا الآن رأينا أننا يمكن أن نعيش بطريقة جيدة من دون أن ندين بأي شيء لا للفرسان ولا لأي أي لقب .. نحن نزرع الأراضي، وبنينا محلات ومتاجر للزراعة، وطواحين، نحن نحاول أن نحترم قوانيننا دون أن يفرضها أحد علينا، أن

نـدافع عن حـدودنـا، وتقـريبـًا كل شـيء يسـيـر علـى مـا يُـرام، ولا يمـكنـنـا الشكوى. أنت شاب كريم، ولا يمكننا أن ننسى ما فعلته لأجلنا... يمكنك أن تمكث هنا إذا أردت... ولكن مثلنا تمامًا...

ـ مثلكم؟ ألا تريدونني كونت؟ ولكنه أمر من الإمبراطور، ألا تفهمون؟ من المستحيل أن ترفضوا هذا!

ـ حسن، هـذا مـا يُقـال دائـمًـا: مسـتـحـيـل... إن الـتـخـلص من أولـئك الفرسان أيضًا كان يبدو مستحيلاً... وعندئذ لم يكن لدينا سوى مذرايـنا وخطاطيفنا ... نحن لا نُكره أحدًا أيها السيد الشاب! وأنت أكثر من أي أحد آخر... فأنت شاب مختلف، تعرف أشياء كثيرة نحن نجهلها... إذا مكثت هنـا وعشت معنا مثلنا من دون أن يكون لك سلطان ربما أصبحت الأول بيننا أيضًا...

قالت سوفرونيا وهي ترفع غطاء وجهها: توريسموندو، لقد تعبت من التجوال، إن أولئك الناس يبدون عقلاء وكرماء، وتبدو لي المدينة جميلة ومزودة بأشياء كثيرة... لماذا لا نحاول أن نصل إلى الاستقرار؟

ـ وحاشيتنا؟

قال السكان: ليصبحوا جميعًا سكان كورفالديا، وسيكون لهم ما يوازي قيمتهم...

ـ إذن سـأحتسب أيضًا مساويًا لحامل ترسي هذا، جوردولو، الذي لا يعرف حتى إذا كان موجودًا أم لا؟!

ـ سيتعلم هو أيضًا... نحن أيضًا لم نكن نعرف كيف يمكن أن يكون لنا وجود في هذا العالم... إن معرفة الوجود أيضًا شيء يمكن تعلمه... فالمرء يتعلم أيضًا أن يكون موجودًا...

- XII -

أيها الكتاب، الآن قد أوشكت أن تصل إلى نهايتك. في الفترة الأخيرة أخذت أكتب من سطر إلى آخر، كنت أقفز بين البلاد والبحار والقارات.

ما هذا الغضب الذي تملكني. ما هذه العجلة؟ ربما يقال إنني في انتظار شيء ما. ولكن ماذا يمكن أن تنتظر راهبة، وقد اعتزلت هنا لتبتعد عن تلك الفرص المتغيرة دائمًا الموجودة في العالم؟! ماذا يمكن أن أنتظر أنا سوى صفحات جديدة لأملأها وقرع الجرس المعتاد في الدير؟

ها هو، صوت حصان يقترب من الطريق السريع، وها هو الحصان يتوقف أمام باب الدير. أخذ الفارس يقرع الباب. من نافذتي الصغيرة لا أستطيع رؤيته، ولكنني أسمع صوته.

- هيه، أيتها الراهبات الطيبات، هل تسمعنني!

ولكن أليس هذا هو الصوت، أم أنني مخطئة؟ نعم إنه هو!

إنه صوت رامبالدو الذي جعلته يدوي كثيرًا في تلك الصفحات! ترى ماذا يريد رامبالدو من هنا؟

- هيه، أيتها الراهبات الطيبات، هل تستطعن أن تقلن لى إذا كانت المحاربة المشهورة برادامانتي قد لجأت إلى هنا؟

إذن، قاد البحث عن برادامانتي رامبالدو إلى هنا.

أسمع صوت الأخت الحارسة وهي تقول له: لا، أيها الجندي، هنا لا توجد محاربات، فقط سيدات تقيات يصلين طوال اليوم لمغفرة خطاياك!

والآن أجري أنا نحو النافذة وأصرخ: أجل يا رامبالدو، أنا هنا، انتظرني، كنت أعرف أنك ستحضر، الآن سأنزل، وسأرحل معك!

وبسرعة أمزق غطاء رأسي ونسيج العُزلة، أمزق رداء الدير وأخرج من الصندوق الكبير ردائي زهري اللون والدرع، الخوذة والحذاء.

- انتظرني يا رامبالدو، أنا هنا، أنا برادامانتي!

نعم أيها الكتاب، فالأخت ثيودورا التي كانت تحكي هذه القصة، والمحاربة برادامانتي امرأة واحدة. أحياناً أركض بين المعسكرات الحربية بين المبارزات والحب، وأحياناً أخرى أخلو بنفسي في الأديرة، متأملة، وأقص القصص التي حدثت لي، في محاولة لأفهمها. عندما جئت لأخلو بنفسي هنا كنت يائسة من حب أجيلولفو، والآن أتوق إلى الشاب العاشق رامبالدو.

ولهذا أخذت ريشتي تجري في لحظة ما. كنت أسعى نحوه، وأجري؛ كنت أعرف أنه لن يتأخر في الوصول. تكون الصفحات صالحة فقط عندما نطويها فنجد خلفها الحياة التي تدفع وتطيح بكل ما تحتويه صفحات الكتاب. فالريشة تجري مندفعة بالمتعة نفسها التي تجعلك تجري في الطرقات. والفصل الذي تبدؤه ولا تعرف بعدها ما ستقصه فيه، مثل الزاوية التي تستدير منها وأنت تخرج من الدير ولا تعرف إذا كنت ستواجه تنينًا وجهًا لوجه، أم قطيعًا من البرابرة، جزيرة مسحورة، أم حبًا جديدًا.

أجري نحو رامبالدو. لن أصافح حتى الرئيسة. فهم يعرفونني بالفعل ويعرفون أنه بعد معارك وعناق وخدع أعود دائمًا إلى هذا الحبر... ولكن الآن سيكون الأمر مختلفًا... سيكون...

من الحكي عن الماضي، انطلاقًا من الحاضر، الذي يقودني ممسكًا بيدي في المناطق الوعرة، ها أنا أيها المستقبل أصعد على سرج جوادك. تُرى كم من الأعلام سترفعها أمامي لأراها من فوق أبراج المدن التي لم تؤسس بعد؟ كم من الأدخنة ستتصاعد من القلاع والحدائق التي أحببتها بعد اجتياحها؟ أي عصور ذهبية غير متوقعة تعدها لي، أنت أيها المتمرد، أنت أيها المستقبل، يا مَنْ تُخرج كنوزك لمن يدفع ثمنها غاليًا، أنت يا مملكتي التي يجب أن أغزوها... أنت أيها المستقبل...

(1959)



الرواية

رواية "فارس بلا وجود" هي الجزء الثالث والأخير من ثلاثية "إيتالو كالفينو" "أسلافنا". وقد سبق وأصدرت سلسلة الجوائز الجزء الأول منها: "الفسكونت المشطور" والجزء الثاني: "البارون ساكن الأشجار".

في رواية "فارس بلا وجود" يواصل "كالفينو" تقديم الجانب الأخلاقي والتربوي نفسه، ولكنه يكتسب طابعًا سلبيًا، بمعنى أن بطلا الروايتين السابقتين كان أحدهما مشطورًا، وثانيهما يحيا فوق شجرة، أما بطل هذا الجزء الأخير من الثلاثية فهو غير موجود أصلًا، بل هو عبارة عن هيئة فارس لا وجود له، ومع ذلك فإن هذا الفارس يجد ذاته في هيئته كما يجد الإنسان المعاصر ذاته في وظيفته وعمله فلا يخرج من إطارها، ويعيش بعدًا واحدًا من أبعاد الحياة، ولكن في مقابل الفارس الغير موجود أحادي الأبعاد، نجد "كالفينو" يقدم في روايته شخصية أخرى هي شخصية "جوردولو" وهي شخصية لها وجودها البيولوجي والفسيولوجي، ولكن ما ينقصها هو الوعي بوجودها وتحقيق ذاتها.

مع نشر هذه الرواية تكون سلسلة الجوائز قد أنجزت ترجمة ونشر ثلاثية "أسلافنا"، ويمكن أن نعتبرها - إجمالًا - تعبيرًا عن واقع الإنسان المعاصر، وما ازدواجية الشكل إلا إنعكاس لازدواجية الواقع الحياتي والاجتماعي والسياسي السائدة في الفترة التي ظهرت فيها ثلاثية "أسلافنا".

الكاتب: إيتالو كالفينو، كاتب إيطالي.

الجائزة: جائزة فياريجيو للأدب عام 1957.



الهيئة المصرية العامة للكتاب





تصميم الغلاف: د. هند سمير